كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

ISBN: 978-9922-685-28-1

مطارحات
(في الفكر والحضارة والدلالة)

الاستاذ الدكتور
علي زوين

٢٠٢٣م

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

٤١٠ /٧

ز ٩٩٩ زوين ، علي.

مطارحات في الفكر والحضارة والدلالة/علي زوين.

– ط١ . – بغداد: مطبعة الرفاه، ٢٠٢٣

٩٨ ص؛ ٢١ سم.

١–اللغة العربية – دراسات – ٢– الحضارة – أ– العنوان.

م.و.

٥٩٢ /٢٠٢٣

المكتبة الوطنية/الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٥٩٢ لسنة ٢٠٢٣ م

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-685-28-1

ملاحظة

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة
غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب
والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.

مطبعة الرفاه 07902823204

تقديم :

ليس من السهل توضيح أفكار المرء ورؤيته لشتى القضايا الفكرية على نحو يستسيغه الجميع، وربما يتعثر الكاتب نفسه بما يعنّ له من الخواطر فيبقى متشابك الأصابع متوتر الأحاسيس لا تسعفه الكلمات لتوضيح رؤية ما أو فكرة كما ينبغي ويستحسن، ولكن ذلك لا يمنع المرء من إبداء ما يراه مفيداً ومهماً في نظره.

وقد جمعت في هذه الرسالة أشتات أفكار رتبتها بحسب مقاصدها على (مطارحات) تتناول الواحدة منها موضوعاً أو مسألة من مسائل الفكر والحضارة والدلالة.

ولا أدعي فيما أعرضه فلسفة أو أطروحة متكاملة العناصر، ولكنني أدعي أن ما أعرضه هو من صميم الرأي والقناعة بعد دأب السنين في آواخر الرحلة الطويلة من العمر.

وأفدت مما قرأته واطلعت عليه من المظانّ والكتب والمباحث والرسائل والمقالات والتطبيقات، وابتدأت الأمر بطرح كل رأي أو فكرة أو رؤية لغيري على قارعة التناسي أو على بساط الفحص والنقد والتعليق مستعيناً بما ارتضاه عقلي القاصر وقناعتي المقتصدة.

أرجو من الله العلي القدير أن يكون هذا العمل المختصر خلاصة لمنتهى السير في هذه الدنيا الزائلة وبداية للسير الأبدي في الآخرة الباقية

المطارحة (١): وحدة الآراء والمعتقدات عند الأمم ذات الماضي الطويل:

قال غوستاف لوبون في كتابه (الآراء والمعتقدات): " دلت التجربة والاختبار على أن للأمم ذات الماضي الطويل آراء ومعتقدات واحدة في بعض المواضيع الأساسية. وتظهر هذه الوحدة بعد تكوين روحها القومية، ولاختلاف هذه الروح باختلاف الأمم فإن الحوادث الواحدة توجب في الأمم المختلفة انعكاسات متباينة".

تعليق:

لسنا بصدد توضيح هذه المسألة ولكننا نرى أن من المستحسن توضيح ما يدور حولها من إبهام وإيهام؛ فالحكم بوحدة الآراء والمعتقدات عند الأمم ذات الماضي الطويل وحصره بالمواضيع الأساسية بعد تكوين روحها القومي ليس كما يبدو متزن المقدمات والنتائج، وفيما يأتي توضيح ذلك:

١-إن الأمم ذات الماضي الطويل تتعرض لتقلبات وتغيرات أساسية في مبانيها الأصولية ومظاهرها الشكلية، ونتيجة لذلك يختلف روحها القومي بعد مراحل زمنية قد تطول أحياناً، وقد تتعرض لهزة حضارية عكسية في أحيان أخرى وتفقد روحها القومي أو جزءاً منه ليتشكل بعد مضي الزمان روح جديد يحافظ على جوهرها لتستمر بالنهوض والارتقاء، أو قد تفقد ذلك الروح وتنتهي حضارتها وتأفل بعد حين من الدهر كما حصل لكثير من الحضارات القديمة كالحضارة الإسلامية. ولم تكن الحضارة الأوربية الحديثة وليدة المسيحية قط أو وليدة عصر النهضة والثورة الصناعية بل تمتد جذورها القديمة الى الوثنية، وما تزال بعض العادات والتقاليد والأفكار والرؤى وربما العقائد الى الآن لها جذور وثنية ممتدة الى ما قبل المسيحية.

٢-إذا ثبتت الأصول الحضارية لأمة من الأمم، وهي : الدين واللغة والقومية تمكنت تلك الأمة من إحراز روحها الحضاري الذي يبقى كالجذوة المستديمة لا تنطفئ على الرغم من الرياح العاتية، وإذا أحرزت الأمة روحها الحضاري كانت متماسكة طوال القرون تجاه الوافدات من خارجها، وإذا أخذت شيئاً من خارج حدودها الجوهرية اتصف ذلك الشيء بأمرين ، أحدهما: أنه ليس جوهرياً وإنما هو عَرَضي يندمج فيما بعد في السمات العامة لحضارة الأمة ويتأثر بها على نحو لا يمكن تفريقه ظاهرياً عن أصالة السمات العامة.

والآخر: أن الدخيل يكتب له الحياة والديمومة إذا وافق التلفيق مع الخصائص، وقد لا يكتب له ذلك فينمحي ويندثر كالزبد الذي تلفظه أمواج البحر.

٣-(إن الحوادث الواحدة توجب في الأمم المختلفة انعكاسات متباينة) كما قال لوبون، ولكن المسألة هذه هي قَيْد

النسبية أيضاً من جهة وقيد مبدأ (الفعل وردّ الفعل) من جهة أخرى؛ فالأمم ذات الأصول الحضارية المتقاربة لا توجب الحوادث المختلفة انعكاسات متباينة لتقارب الأصول المؤدية الى تقارب الفعل وردّ الفعل، بخلاف الأمم ذات الأصول الحضارية المتباينة أو المختلفة، ومثل هذه الأمم قد يحصل فيها التباين في الانعكاسات لتباين الأصول واختلاف الأفعال وردودها.

المطارحة (٢): مفهوم العِرْق التأريخي:

قال غوستاف لوبون في كتابه (الآراء والمعتقدات): " ليس اليوم ما يسمونه العروق الخالصة موجوداً بالمعنى العلمي الصحيح، وإنما خضعت أمم تنتسب الى جنس واحد أو الى أجناس كثيرة متقاربة قروناً طويلة لمعتقدات واحدة وأنظمة واحدة وقوانين واحدة ولغة واحدة تكوّن منها (عِرْق تأريخي) ... حينئذٍ صار لهذا العرق في كثير من المواضيع سياسية

كانت أم أخلاقية أم دينية أفكار ومشاعر مشتركة أصبحت راسخة في النفوس بحيث يُسلّم بها جميع أبنائها غير مجادلين".

تعليق: هذا كلام صحيح سليم على وجه العموم، ومصطلح (العُرْق التأريخي) استعمال موفق والمغزى من كلام لوبون أن الحضارة هي الوحدة الجامعة للأمة ليس العرق الأنثروبولوجي : (الإثْنية) ، ولكن هل يصح ذلك على المستويات التأريخية والإثنية كلها؟ هذا هو السؤال المهم. إن المبادئ التي تقوم على أسس (قومية إثنية) بمعنى الحفاظ على نقاء الأمة هي محض تجاوز للواقع البشري وتأريخ الأمم لأن اختلاط الأجناس البشرية أمر واقعي لا يحتاج الى دليل، ولكن ذلك لا يعني انتفاء بعض الصفات ذات الصبغة القومية والإثنية مع الأخذ بنظر الاعتبار التفريق بين مصطلحي (القومية) و (الإثنية)؛ فالقومية لا تعني بالضرورة الانحدار من أصل واحد أو جِنْس واحد، ولكنها تعني على وجه التقريب

البنى الاجتماعية والثقافية لأمة من الأمم؛ فالولايات المتحدة – مثلاً – ليس لها قومية أو إثنية لأنها خليط من شعوب وقوميات مختلفة ، ولكن الجامع لها اللغة والثقافة وبعض العادات والتقاليد لتلك الأمم مع الأخذ بمبدأ (التجانس الشكلي) أو الوهمي، ولذلك نرى تقلبات المجتمعات الأمريكية منذ نشأة الولايات المتحدة الى يوم الناس هذا وهو ما يزعمونه زوراً بمبدأ (الحرية)، ويبقى الصراع الخفي بين القوميات الأمريكية كالجمر خلال الرماد يطفح حيناً فيشب الحريق ويخبو حيناً آخر بمعالجات سطحية لإرضاء العصابة الحاكمة من السياسيين والاقتصاديين، وجلهم من اليهود الصهاينة أو من الصهاينة غير اليهود ، وبناء على ذلك صرّح أكثر من عالم أمريكي في الحضارة والتأريخ الحضاري أن مآل ما يدعى حقاً بـ(الإمبراطورية الأمريكية) الى زوال لا محالة.

إن الأمم الأوربية فقدت تماسكها القومي بعد عصر الإمبراطوريات وزوال الطبقات الاجتماعية، والقول إن الطبقة الإقطاعية ومن ثم البرجوازية التي ظهرت قوية بعد الثورة الصناعية هي ميزان الاعتدال لأوربا في الحفاظ على سلامتها القومية هو قول فيه نصيب كبير من الصحة لأننا نرى في عصرنا بدء انهيار أوربا حينما فقدت هذا الميزان.

وأما الأجناس البشرية فقد حافظ بعضها على عناصر مميزة لها؛ فالعنصر السامي – مثلاً – أكثر ميلاً الى البداوة ليس في مظهره بل في جوهره، خلافاً للعنصر الآري الذي يميل الى المبدأ العملي، وبتعبير آخر ترى الصحراء والشعراء والحسيّة المنظورة في أصول الساميين أكثر من غيرهم بخلاف العمل والآلة والصناعة في أصول الأقوام الهندية الأوربية، بيد أن هذا الأمر يخضع أيضاً للنسبية ولا يمكن أن يُدّعى شموله وعمومه، وما هو خلاف القاعدة ليس من

باب الشذوذ بل هو منظور وله شواهد، وكذلك الأمر في الأمم السامية.

المطارحة (٣): الأفكار الناقصة والخاطئة لا تبني بديلاً منها:

قال جون هرمان راندال في كتابه (تكوين العقل الحديث): " قد تستطيع الأفكار الناقصة، بل الخاطئة أن تحطم ما ثبت بوضوح أنه عديم الفائدة، ولكنها لا تستطيع أن تبني بديلاً منها. ولقد انقضى قرن كامل قبل أن يدرك الناس هذه الحقيقة"، بمعنى أن تحطيم ما هو غير مفيد يحتاج الى بديل، ويتوقع أن يكون البديل غير قابل للتحطيم.

تعليق:" هذا أمر لا يمكن أن تستجيب له الأفكار الخاطئة أو الناقصة لأن الخطأ والنقصان لا يبنيان إلا مثلهما. ويمكننا أن نضيف الى ما ذهب إليه راندال أن الأفكار غير الصائبة قد تستمر مع بدائل مثلها، ولكن القاعدة لا تطرد لأن

(المُجّربَ لا يُجرَّبُ) كما يقال في الأمثال. إن الخطأ والنقصان لا يولّدان إلا خطئاً ونقصاناً، ولدينا من شواهد من التأريخ والتأريخ الحضاري ما يستدل به على أن الخطأ أو النقصان في الأفكار مجردة كانت أو غير مجردة قد يولّد حالة من التركيب والتراكم عبر الزمان، ومثل هذا الأمر يؤدي حتما الى ضياع الحقيقة وما هو نافع ومفيد في حقول التجارب الإنسانية.

المطارحة (٤) : (نظرية المعرفة) بين الطرائق الرياضية والاستنتاجية والطرائق الاختبارية والتجريبية:

قال راندال في كتابه (تكوين العقل الحديث) : "إن الطرق المستعملة في إقامة علم الإنسان الجديد قد بقيت نوعاً ما متخلفة عن أحدث الطرق العلمية المعاصرة ؛ فبينما نرى الأخيرة تصبح تجريبية أكثر فأكثر نرى الأولى قد ظلت حتى

قيام الثورات الاجتماعية العظيمة في نهاية ذلك القرن (الثامن عشر) رياضية واستنتاجية الى حدٍّ غالب" .

تعليق: لسنا بصدد أن نؤرخ لنظرية المعروفة وتطورها ومناهج البحث العلمي، لأن المناهج التقليدية المعروفة تشتمل على الرياضيات والاستنتاج من المقدمات والوصفية القائمة على التجريب، وهو المنهج التجريبي العملي الذي شاع في عصر (بيكون) وأتباعه، وهو منهج يعتمد على الاستقراء المؤدي الى التحليل ومن ثم الى التركيب والوصول الى التقعيد.

والمهم في هذا الموضوع الإشارة الى ما ذهب إليه (جون ديوي) في نظرية المعرفه، وهو القول إن العلم القديم كان يعتمد على السؤال (لماذا؟ ...)، وأما العلم الحديث فيعتمد على السؤال (كيف؟ ...)، وهل يمكن تصور شيء آخر غيرهما؟ لأن المعرفة من حيث أنواعها وأقسامها يمكن أن

تنقسم على ستة أوجه: معرفة حدسية، ومعرفة يقينية، ومعرفة برهانية، ومعرفة استنتاجية، ومعرفة استنباطية، ومعرفة تجريبية، والجواب على السؤال المذكور آنفاً هو: نعم .. لأن طرائق المعرفة متعددة ومتجددة بتنوع العلوم والمعارف وتطورها. ولو افترضنا أن العلم القديم كان يعتمد على طرح السؤال بكلمة (لماذا ؟ ...) ، والعلم الحديث يطرحه بكلمة (كيف؟ ...)، لرأينا أن سبيلاً آخر وربما سبل أخرى يمكن تصورها في المستقبل القريب والبعيد، منها على سبيل المثال أن العلم لا يعتمد على طرح السؤال (لماذا ... كيف) وإنما يعتمد على فهم عبارة : (هو ذا) ، ولا يمكن الوصول الى فهم هذه العبارة إلا عن طريق الاستقراء أو الاستنتاج أو الاستنباط، أي الاستعانة مرة أخرى بالمناهج القديمة في تحليل الظاهرة ومن ثم الوصول الى حقيقتها تصوراً أو تصديقاً؛ فتكون الظاهرة جديدة من دون الولوج الى طرائق المناهج القديمة مهيأة لتقديمها على فهم عبارة : (هو ذا ...).

ومعنى هذا الكلام اختصار البحث المعرفي وتقديم المعرفة كالطعام الجاهز للأكل، وهذا أمر يصعب تصديقه على أغلب الناس، ولكننا قد نصل إليه في يوم من الأيام .

المطارحة (٥) : وحدة الوجود (مفهوم جديد) :

(وحدة الوجود) و (وحدة الشهود) مصطلحات يتنازعان بين الفلاسفة والمتصوفة، والمعروف أن (وحدة الوجود) رؤية فكرية فلسفية روحانية تبناها جمع من المفكرين والفلاسفة قديماً وحديثاً ولاسيما أغلب متصوفة المسلمين ، وبلغت ذروتها عند المفكر والفيلسوف والمتصوف الكبير محيي الدين بن عربي. وتختلف الألفاظ وتكاد تتوحد التعريفات عند هؤلاء جميعاً، وربما يجد القارئ غير المعني بالفلسفة والتصوف صعوبة في فهم المراد والمقصود بمصطلح (وحدة الوجود).

وخلاصة الخلاصات – على أيسرها وأبسطها تعبيراً – أن وحدة الوجود تعني (الخلق والخالق) ، وهي ترى أن الوجود بأكمله محسوساً أو مجرداً عقلياً يتحد مع الخالق ويتوحدان كأنهما شيء واحد. والخالق عندهم في كل شيء، وكل شيء في الخالق، ولكن المتصوفة المسلمين ذهبوا هذا المذهب من غير القول بـ(الحلول) أي من غير أن يكون الخالق قد حلّ بالمخلوق فأتحدا وكوّنا حقيقة الوجود كله، ولذلك نرى الحسين بن منصور الحلاّج كان يردد قوله: (الله في جُبّتي) فاتهم بالكفر وقتل شهيداً على أبشع كيفية إذ صلب وذُرّ رماده في نهر دجلة.

وأما (وحدة الشهود)، وهي المعنية في أغلب مقالات المتصوفة المسلمين فهي أن نجد الله تعالى وجوداً مجرداً في كل مخلوق، فيكون المخلوق شاهداً على وجود الخالق في وحدة متكاملة بين الشاهد والمشهود، وهي رؤية إسلامية صرفة منبعها آيات من القرآن الكريم إذ حثّ الله تعالى على

أن ننظر الى خلقه كالسموات والأرض والإنسان والحيوان لنؤمن بأن له واجداً خالقاً قادراً له مطلق الإرادة، فيكون الخلق بهذا المعنى شاهداً على الخالق، وبتعبير آخر بيان السببية بين الخالق والخلق بحيث يكون الأول سبباً لوجود الثاني.

تعليق: ربما أجد نفسي مطمئنة للقول برؤية أخرى في هذه المسألة الشائكة على التفصيل الآتي : إذا أردنا أن ننظر الى الوجود كله من حيث عناصره الأساسية أي جوهره، ومن حيث صوره المختلفة أي مظهره قادتنا هذه النظرة الى حتمية سبب في إنشاء الخلق، ويكون بذلك مُسبّباً (بفتح الباء) حتماً، وإذا سُبّب هو لأمر آخر فالأصل للمسبّب (بكسر الباء) الأول لأنه بغيره لا يكون لعناصر الخلق وجود لكي تسبّب الأسباب ، وقد قيل في الدعاء:(يا مُسبّب الأسباب من غير سبب)، ولما كان الوجود كله يمضي على وتيرة واحدة ويتبع قانوناً واحداً أمكننا إدراك مسألة مترتبة على ذلك، وهي أن الوجود مخلوق لواجد واحد، ويكون الخلق واحداً من حيث الانقياد

الى قانون واحد يختلف في الهيئة والصورة والشكل، ينبثق من عقل واحد مخلوق أيضاً وهو العقل الجمعي العام الذي يسمى عند المتكلمين المسلمين بـ (العَقْل الكُلّ)، هذا عند ذوي العقول، وأما عند غير هؤلاء فالجوهر يقوم مقام (العقل الكُلّ). كأن يكون الحجر أو الشجر هو الجوهر العام وينبثق من خلال ذلك كله صور للحجر وأخرى للشجر ... وهكذا، أي كما يقال في مصطلح أرسطو ينتقل من القوة الى الفعل؛ فالخشب – مثلاً كرسي أو منضدة أو زورق أو مكتبة ... الخ بالقوة، والكُرْسيّ والمنضدة والزورق والمكتبة هي كذلك بالفعل.

وأهم ما في هذه الرؤية التي أدعيها ائتلاف الجوهر وائتلاف النسق الواحد وائتلاف التناغم الواحد، لأن عكس ذلك لا يمكن للوجود أن يحظى بالمسير والمصير لتنافر الأسباب، فينعدم بعد وجود ويضطرب بعد اتساق.

وخلاصة الكلام أن وحدة الوجود تعني أن الوجود كله واحد، خَلْق واحد، يختلف في الصور ويأتلف في الجوهر، ينبثق من عقل واحد، في نسق واحد، وتناغم واحد، في مسير واحد، ومصير واحد، كما بدأ ينتهي، خلقه خالق واحد.

المطارحة (٦): الديمقراطية وَجْه مُقنّع للدكتاتورية:

في علم الدلالة مسألة كثر الجدل فيها، وهي الدلالة المعنوية للكلمات، وعلى الرغم من أن علم الدلالة عالج هذا الموضوع في حقل الدلالة المركزية والدلالة الهامشية، وعالج أيضاً تحديد معاني الألفاظ تحديداً نسبياً في نظرية الحقول الدلالية، غير أن ألفاظاً بقيت معلقة لا يمكن التوصل فيها الى قناعة المتلقي كما ينبغي، وهي ألفاظ توصف أحياناً بـ(المائعة) أو (الفضفاضة) أو (الملتوية) أو (الجوفاء) كمصطلح (الديمقراطية) مثلاً ؛ فمنذ أن عرف هذا المصطلح قديماً

واستعمل في نظرية الحكومة المدنية صفة لحاكم (دولة المدينة) قبل الميلاد قروناً في اليونان ولاسيما في عهد (بركليس) تعرض المصطلح الى تهكمات عديدة واستغل في معانٍ مختلفة قد تكون أحياناً متناقضة، واستعمله الحكام سلباً وإيجاباً لتوطيد حكمهم وتوطيد سلطتهم .

ولم يعبأ (سقراط) وتلامذته فيما بعده ولاسيما (أفلاطون) بنظرية الحكم القائمة على مجالس منتخبة من عوامّ الناس، ولكنهم ذهبوا – ولهم الحق كله – الى تأسيس مجالس من الحكماء والفلاسفة لحكومة البلاد. وهذا المبدأ – وإن كان نظرياً لا يسعفه الواقع – هو خير ما توصل إليه فلاسفة الإغريق من المدرستين السقراطية والأفلاطونية ومن ثم مدرسة أرسطو وأتباعه.

وأريد من هذه الفذلكة التأريخية الوصول الى أن ألفاظاً كالحرية والمساواة والعدالة وغيرها تبقى مجردة من المعاني

المتفق عليها أو من المعاني التي استقرت تماماً في مجال المركزية وخرجت من الهامشية؛ فالعدالة على سبيل المثال تختلف من حيث المضمون بين مستويين متدرجين من الاختلاف الى التناقض، فهي في مفهوم الفلسفة الأفلاطونية غيرها في مفاهيم المدارس الفلسفية الإغريقية القديمة. وزاد التناقض في العصر الحديث الى غاية يرى فيها بعض الفلاسفة أن العدالة هي مبدأ (القوة)، وهو ما ذهب إليه (فردريك نيتشة) الفيلسوف الألماني وتبناه فيما بعد هتلر وأتباعه النازيون.

إن العالم الحديث بقيادة الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية استغل مصطلح (الديمقراطية) أسوأ استغلال كما استغلت الثورة الفرنسية في آواخر القرن الثامن عشر كلمات شعارها: (الحرية والعدالة والمساواة). والناظر في حقيقة الديمقراطية المدعاة في أوربا وأمريكا يرى أنها ضحك على الذقون وتبرير لأشد أنواع الدكتاتورية واستغلال لنوايا الغافلين من الشعوب

لتسويق بضائعهم المتهرئة الفاسدة الى شعوبها وشعوب غيرها؛ فما من دولة بعد سقوط الإمبراطوريات الحقيقية التي كانت قائمة على النخبة الارستقراطية دخلتها هذه الديمقراطية السرطانية إلا وآلت الى الخراب والبوار في النواحي كافة، ولذلك يمكن الجزم بأن (الديمقراطية ما هي إلا دكتاتورية مقنعة بقناع الدهماء والغوغاء).

المطارحة (٧) : كل فلسفة ينبغي أن تبنى على أسس روحانية وعقلية وعملية وواقعية مفيدة للأفراد والجماعات:

إذا أريد الفلسفة ما أن تكون مفيدة للجنس البشري يجب أن تأخذ بالمعايير الأربعة الآتية: الروحانية، والعقلية، والعملية، والواقعية. وأما الروحانية فهي جوهر الفلسفات والأطروحات الفكرية، ولا أعني بها المسائل الغيبية وما وراء الطبيعة وإنما المقصود أن تجعل الفكر كالإنسان أي له روح هو أساس حياته، وله جسد لكي يحيا ويعيش الحياة؛ فالفكرة أو الفلسفة

أو الأطروحة إذا خلت من روحها أي جوهرها المتسامي عن الحسية والذاتية والنفعية أضحت فكرة فاسدة مفسدة لا ينبغي لها أن تحيا، وإذا حييت أصاب الآخرين الوهن والضعف والموت. ودلت تجارب الحياة المستخلصة من تواريخ الأمم أن الحضارات التي آلت الى السقوط هي تلك التي تخلت عن روحها.

وأما العقلية فهي التي لا تنظر الى الأمور اعتماداً على الحس المطلق الذي يشوبه الشك في معرفة الأشياء؛ فالرياضيات – على سبيل المثال – علم عقلي مجرد يتسم بالصدق ويوصل الى الحقيقة بقدر تعارف الناس على مخرجاتها، فالأعداد والمساحات والأشكال الهندسية كلها وضعية متعارف عليها، وبما أننا نعيش في عالم محدود الزمان والمكان ولنا عقول محدودة محصورة منقادة فيجب أن نقرن الحقيقة بعقولنا المحدودة من دون الإلتفات الى الحكم المطلق عليها، ولذلك يعد العقل الإنساني السمة المميزة لحقيقة

الأشياء ولو كانت عقلية محضة لا علاقة بها بالعالم الخارجي، وهذا الذي أعنيه بالصفة العقلية للفلسفة.

وأما الصفة العملية لأي فلسفة فهي أوفر حظاً من حيث الأهمية التطبيقية لخدمة الإنسان في مجالاتها العملية الصرفة، ولا تنظر مذاهب فلسفية مادية الى القضايا التي تمت الى ما وراء الطبيعة إلا بعين الاستهجان، ثم إن سواد المثقفين لا يهمهم من الفلسفة سوى جانبها العلمي التطبيقي الذي يمس حياة الإنسان، ولذلك استصعبوا أفكارها ومصطلحاتها ما جعل بعض العلماء والمفكرين يذهب مذهب التيسير في فهم القضايا الفلسفية أمثال (ديورانت) في كتابه (قصة الفلسفة) و (غاردر) في روايته (عالم صوفي).

وأما الواقعية فهي مطلوبة لمن يعنيه الإنسان قبل كل شيء، ويظن أن الإنسان يجب أن يكون محور كل فلسفة وهدفها، وهذا ما سعى إليه سقراط وأفلاطون وأرسطو بعد أن نقلوا

الفلسفة من عالم تكون الوجود والعناصر الأربعة (الماء والتراب والنار والهواء) الى عالم الإنسان من حيث طبيعته وسلوكه وأخلاقه وشؤونه المختلفة في الحياة فرداً كان أو جماعة، غير انهم لم يتركوا مسائل متعلقة بما وراء الطبيعة بل عالجوها بربطها بالطبيعة كما فعل أفلاطون في عالم (المُثُل) وأرسطو في منطقه. وبرزت في ميدان البحث الفلسفي دراسات في (الجمال) و (الأخلاق) و (السياسة) ... الخ.

المطارحة (٨): نشأة الوجود ومقولة (التناسق والتناغم):

كثر الحديث عن الوجود ونشأته في فلسفة الحضارات القديمة ولاسيما حضارات الصين والهند وبلاد فارس والحضارة المصرية الفرعونية الى أن وصل الحديث ذروته في الحضارة الإغريقية التي استفادت مما سبقها وأضافت من عندها ما جعلها وريثة الحضارات القديمة وجسراً الى الحضارة الأوربية

في القرون الوسطى وما تلاها بعد أن اندثرت حضارات الشرق وأصبحت أثراً بعد عين.

والقول بنشأة الوجود من عنصر واحد من العناصر الأربعة أو من العناصر الأربعة مجتمعة هو أهم ما توصلت إليه الفلسفة اليونانية قبل سقراط، يضاف الى ذلك ما قيل عن نشأة الوجود من الذرات، وهو ما يعرف بالنظرية الذرية. وكلام أفلاطون على عالم (المُثُل) أو (الصور) وصلته بالعالم المادي الذي نعيشه هو من إرهاصات أو مقدمات الفلسفة المثالية. ولا يعنيني ما توصلوا إليه من نتائج ومباحث، ولكن الذي أرعاه هو بيان يشتمل على رؤية أراها جادة وربما جديدة في مسألة من أكثر المسائل الفلسفية صعوبة. وتذهب هذه الرؤية أو المقولة الى أن نشأة الوجود لها صلة سببية بما يعرف بـ(التناسق) و(التناغم) على التفصيل الآتي:

يتكون الوجود في العالم الذرّي من (اللا مادة المحسوسة)، ولكنه يحمل في ذراته ما سيؤدي إليه بعد الانتقال الى العالم المادي، وجوهر هذا العالم هو (الصور والمُثُل) التي تطابقها ما يشاكلها في عالم المادة، وبعد ذلك ينتقل الوجود الى العالم المادي وتقترن الصور بما يشاكلها، ويعبر عن ذلك بـ(الاقتران الأول) أي اقتران الصورة أو المثال بجسد ويتألف من ذلك الوجودُ من صورة داخل جسد، وبعد موت الجسد تنتقل الصورة الى العالم (البرزخي)، العالم المجرد من المادة ، وهو ما يعبر عنه بـ(الاقتران الثاني) أي تحرر الصورة من المادة وعودتها الى عالمها الأول واقترانها بما يشكالها من الصور.

إن سبب المشاكلة والاقتران في العالمين الصوري والمادي هو (التناغم والتناسق) أو (التماثل) الى أن يحصل الفناء وعودة الوجود الى حاله الأول قبل وجوده أي (اللا وجود).

ويمكن توضيح هذا الأمر على نحو مختصر في المخطط الآتي:

العالم الذرّي (عالم الصور والمُثُل) ← العالم المادي (عالم الاقتران الأول) = الصور والمثل + الجسد ← العالم البرزخي (العالم المجرد من المادة) = العودة الى المثل والصور (عالم الاقتران الثاني) .

ونستنتج مما ذكر آنفاً أن الوجود كله واحد، خَلْق واحد، يختلف في الصور ويأتلف في الجوهر، ينبثق من عقل واحد؛ في نسق واحد، وتناغم واحد، في مسير واحد، ومصير واحد، خلقه خالق واحد، أي إن وحدة الوجود هي الوحدانية في الخلق والخالق لا بمعنى الاتحاد والحلول.

ويعني التناغم في العالم الذري التناغم الائتلافي بين الذرات ذوات الصور والمثل، ويعني التماثل التناسق ، وهو توافق الموسيقى الروحانية؛ فالموجات النغمية التناسقية تشتمل

أيضاً على ما نسميه بـ(الجمادات)، ونصل من ذلك الى نتيجة مفادها أن نشأة الوجود ما هي إلا تناغم وتناسق حيوي لذوات الأرواح، وتكامل للجمادات الى أن نصل الى النهاية، فيكون البقاء للمتناغم والمتناسق والفناء للمتنافر، وفناء المتنافر في حقيقته هو صراع الأضداد والذهاب الى (الخلاء) المطلق، أي العودة الى ما كان عليه، وجميع ما يوصف بحيوية الإنسان على الأرض قائم على هذا المبدأ: (الأخلاق – العائلة – المجتمع – العمل – السلوك – الدين والمعتقد – السياسة – الاقتصاد ... الخ)، فيبقى المتناسق المتناغم ويفنى المتنافر ويذهب الى عالم الزوال قبل ذهاب الوجود الى حاله الأول أي (اللاوجود). وسر الخليقة هو هذا الأمر، والجواب لمن سأل: لماذا خُلقنا؟ هو هذا، لأن الهدف من الخلق قبل فنائه هو الوصول الى مبدأ التناسق والتناغم، إذ بهما يكتمل الإنسان ويبرر وجوده على هذه البسيطة، وهو مبدأ كالغربال تغربل به البشرية منذ أن خلقت الى أن تصفو

كما يصفو الماء الكدر من كدورته ويصير ماءً زلالاً صافياً، وهذا هو السرّ الذي أودعه الله تعالى في نفوسنا قبل أن يخلق أجسادنا.

المطارحة (٩): دليل على وجود الله تعالى:

إن أكبر دليل لا يضاهيه دليل آخر على وجوده تعالى أن أغلب الناس متفقون منذ وجودهم على قدرة قادرة على الخلق، وهم بذلك متدينون، ولكنهم اختلفوا في السبل الموصلة الى الخالق؛ فمنهم من آمن بإله واحد، ومنهم من آمن بأكثر من إله، ولكنهم مفطورون على (بذرة الدين) في غريزتهم، أي الإيمان بقوىً أكبر من قوة الإنسان، وتعددت بذلك الآلهة وتباينت عقائد الناس.

إن الملحد لا يمكن أن يكون ملحداً في قرارة نفسه، خُذْ مثلاً ملحداً شبّ في بيته حريق هائل أو ملحداُ يتلفظ بأنفاسه الأخيرة غرقاً في الماء، تجد الأول والثاني يتوجهان لا شعورياً

الى شيء ويعتقدان قدرته على إنقاذهما مما هما فيه. إن صرخة الملحد حين يحترق أو حين يغرق ملتمساً النجاة من قوة خارقة قادرة هي أكبر دليل على أن عقيدة الله تعالى تسكن في قلوب الملحدين أيضاً.

المطارحة (١٠): العدالة:

إذا أردت أن تفهم معنى العدالة فانظر الى ما ترمز إليه، إن رمزها الميزان بكفتيه؛ فالعدالة هي تعادل الكفتين، لا إفراط ولا تفريط. ويجب أن يسود تعادل الكفتين جميع شؤون الناس وشجونهم، في السراء والضرّاء، عند الحاكم والمحكوم، بين الغني والفقير.

هذه هي العدالة التي ينبغي أن تسود الناس، رغبة أو رهبة، صلحاً أو قهراً. وتنطبق العدالة أيضاً على أنواع النفوس،

وسلوك الفرد مع نفسه ومع غيره، وسلوك المجتمع تجاه الأفراد، وسلوك الأفراد تجاه المجتمع.

إن العدالة لا تحتاج الى تعريف جامع مانع لأنها السلوك الفردي والجماعي. إن أفضل شيء أن لا نُعرّف بالعدالة بل نحياها نِيّة وقولاً وفعلاً. إن العدالة وأمثالها من الألفاظ المبهمة التي تثير القلق في النفوس والاضطراب في العقول يجب أن لا تُعرّف لأنها أوسع من أن تُعرّف. انظر دائماً الى كفتي الميزان في عقلك ونفسك وسلوكك فإذا اعتدل فهي العدالة وإذا ثقلت إحداهما وخفّت الأخرى أختلّ الميزان وأصبحنا في إحدى الكفتين: الإفراط أو التفريط ، حينها يمكننا أن نصف عقولنا ونفوسنا وأعمالنا بأنها غير عادلة . العدالة – إذن – توازن الميزان في كل شيء يخطر على بال الإنسان.

المطارحة (١١): ملاحظات في الفكر الحضاري:

١-تتكون عناصر الجوهر الحضاري من أربعة أشياء: البُعْد الزماني – البُعْد المكاني – العُمْق – الامتداد والحركة، على التفصيل الآتي:

أ. البعد الزماني: لكل حضارة تأريخ يطول أو يقصر بحسب تكونها ومستواها وشيوعها وانتشارها، ولا يمكن أن تجرد من بعدها التأريخي ولاسيما الحضارات الموغلة في القدم كحضارة وادي الرافدين، وحضارة مصر الفرعونية، وحضارة الصين والهند وبلاد فارس، والحضارة الإغريقية ووريثتها الرومانية الى أن نصل الى حضارات أوربا في العصور الوسطى والحديثة. ونستنتج من ذلك أن عنصر التأريخ أو الزمان يمثل العمود الفقري لكل حضارة.

ب. البعد المكاني: لابد لكل حضارة من أرض تؤسس عليها ودولة ذات مؤسسات مدنية ودينية، وتمتد هذه

الدولة لتشمل أراضي أخرى ودولاً أخرى بحسب قوتها وإمكانياتها في التوسع، وغالباً ما تتصف بذلك الإمبراطوريات المعروفة في التأريخ ذات الحضارات العريقة كالإمبراطورية الآشورية والفارسية والصينية واليونانية والرومانية والإسلامية فيما بعد.

وهاهنا سؤال جدير بالإجابة، وهو أيهما أعمق وأبقى الدولة أو حضارتها؟ والجواب لا يحتاج الى دليل، وغالباً ما تزول الدول وتبقى حضاراتها أمداً طويلاً.

ج. العمق: عمق الحضارة أصالتها، ولكل حضارة أصيلة نواة صلبة وخصائص أساسية تدوم زمناً طويلاً وتنتقل من جيل الى آخر، وإذا جرى تحوير أو تطوير أو تغير في بعض الخصائص لم يشمل ذلك جوهر تلك الخصائص إلا بقدر ما تسعى إليه من الحفاظ على ديمومتها، وأما نواتها الصلبة فهي أطول بقاءً، وربما تبقى طوال القرون ، ولذلك نرى التصادم الذي جرى

في عصرنا هذا مع أطورحة (العَوْلمة الثقافية) إذ لم تستطع نظرياتها أن تغير من أصالة بعض الحضارات الكبرى ما أدى الى فشلها والعزوف عنها ، ورجع العالم القهقرى الى مبادئه الأولى .

د. الامتداد والحركة: لا تبقى الحضارات ساكنة في أرضها فقط ولا في زمانها بل هي دائمة الحركة من زمان الى آخر، ومن مكان الى آخر، ولا يمكن لحضارة إلا أن تكون ممتدة مع حركة تأريخها الخاص وحركة تأريخ الحضارات الأخرى العام. وتختلف الحضارات فيما بينها من حيث الحركة والامتداد باختلاف قوتها وأصالتها وحيويتها ومقاومتها للعناصر الخارجية المؤثرة فيها.

٢-إن أساس العناصر الجوهرية لكل حضارة هي (الملكة الجماعية) لشعوبها، إما بالقوة أي ما ستؤول إليه وإما

بالفعل أي ما آلت إليه، وباقي العناصر توابع ونتائج ومظاهر.

٣-أنواع الحضارات:

أ. الحضارات البدائية، وهي أشباه الحضارات، وتتسم بضعفها وعدم شمولها وديمومتها في زمن قصير واقتصارها غالباً ما على مكانها لا تتعداه إلا قليلاً. وتشتمل على فجر الحضارات الأولى وثقافات ما قبل التأريخ وما بعده، وقد نجد بعض مظاهرها في عصورنا هذه منقطعة نائية في الجبال والأدغال والغابات ومقتصرة على أمم لم يشملها التطور الحضاري العام.

ب. حضارات تكوينية: وهي الحضارات الأصيلة المرتكزة على قواعد صلبة.

ج. حضارات تكميلية: وأعني بها الحضارات اللاحقة للسابقة والمكملة لها. وتختلف مثل هذه الحضارات من

حيث انصهار الحضارات السابقة عليها في بوتقة واحدة وإضفاء سمات عليها تبدو وكأنها أصيلة.

د. حضارات تبعية: وهي تتبع غيرها من الحضارات كما نشاهد في زماننا هذا من تأثير بالغ للحضارة الأوربية في مشارق الأرض ومغاربها من حيث العلاقات السياسية والاقتصادية والقضايا الأممية عامة أو من حيث المأكل والملبس والمسكن.

٤-الملكة الحضارية بين الفطرة والاكتساب: إذا كانت الحضارة ملكة جماعية فهي فطرية محدودة بجماعة حين النشأة، ثم تنتقل الى ملكة اكتسابية بعد النشأة. وربما سأل سائل عن المقصود بالفطرة، أهي الفِطْرة بمعنى الخَلْق أم أنها شيء آخر؟ والجواب: إن الفطرية يقصد بها الاستعداد العقلي والنفسي لشعب من الشعوب لإنشاء حضارة، والقول بأن الشعوب متساوية من حيث العقول محض هراء لا تصدقه وقائع التأريخ وعلم الاجتماع

والأنثروبولوجيا الحضارية؛ فلا يمكن – مثلاً – مقارنة شعوب الصين والإغريق والفرس ومصر القديمة بشعوب سكان البوادي والبراري والغابات والأدغال والجزر النائية في البحار والمحيطات.

٥-ذهب (توينبي) الى مبدأ أطلق عليه (التعاصر الحضاري) أو (التعاصر بين الحضارات) ليصل الى التفريق بين الزمن التأريخي لحضارة ما والزمن الحضاري لها. والحق أن الزمن الحضاري يتجاوز الزمن التأريخي أي البعد الزمني الماضي الى العمق الزمني. والفاعل في ذلك ما تتصف به الحضارة من الامتداد والحركة.

٦-الحضارات تولد وتنشأ وتتسع ثم تضمحل وتنهار طبقاً لسُنّة حياة الإنسان: الولادة والنشأة والشباب والكهولة والشيخوخة، ومن ثم السقوط والموت. وهذه رؤية أو أطروحة نجدها عند ابن (خلدون وشبنغلر)، وأرى أنها

صحيحة لتواتر شواهدها عبر العصور. ويرى شبنغلر أن الحضارة حينما تبلغ عمر الشيخوخة تنتقل الى المدنية.

٧-مفهوم (الجَبْرية) في تفسير سير الحضارة، إذ يرى توبيني أيضاً (أن الحضارات نشأت ونمت وتدهورت وإنهارت طبقاً لتوقيت ثابت لا يتخلف).

٨-إن (الجبرية التأريخية) أمر مسلم به لفهم حركة التأريخ وطبيعتها . حركية التأريخ ليست عبثية وإنما هي أمر مخطط له في نشأة الحضارات ورقيها، ومن ثم عجزها عن التناغم مع هذه الحركة للاستمرار، فتكون الصيرورة مصيرها الجمود ثم الانهيار والاضمحلال ثم السقوط.

٩-(الجبرية التأريخية) و (الحركية التأريخية) ومسير الحضارات ومصيرها كلها حول فلك واحد هو العالم والكون ابتداءً واستمراراً وانتهاءً. ولابد من إدراك فناء العالم وانهيار الكون لأن حركة المادة لابد لها من الانتهاء

لتخلفها بدائل المادة، إما مادة أخرى بقوانين مختلفة عن الأولى، وإما بأشياء أخرى يعجز الإنسان عن إدراكها.

١٠- يرى توينبي أن نظام الحرب ونظام الطبقات هما (الآفتان الطبيعيتان في اندثار الحضارات).

تعليق: كان نظام الطبقات من الأسباب المهمة في تكون الحضارات وازدهارها عبر مراحل التأريخ، ونظام الطبقات من أهم الأسباب في تكوين الحضارة الغربية وخصوصاً في العصور الأرستقراطية، وينطبق ذلك أيضاً على النظام الكنسي للكنيسة الكاثوليكية، وأما الحروب فقد يكون بعضها سبباً في انتشار حضارة من الحضارات ولاسيما فيما يعرف بالغزو العسكري الحضاري.

ويستنتج مما تقدم ذكره أن نظام الطبقات سبب لانتشار أغلب الحضارات بحسب بنيتها الاجتماعية، ومن المستبعد أن يكون سبباً في انهيارها لأن المجتمعات البشرية منذ قيام الحضارات

الكبرى في التأريخ لم تعرف إلا نظام الطبقات في الأعم الأغلب، فكيف لنا أن نفسر انهيار الحضارات بسبب نظام الطبقات التي أنشأها ؟!!!

وأما الحروب فخراب بعد بناء، وقد يكون البناء في بعض أحواله سبباً لظهور حضارة جديدة أو امتزاج حضارتين أو تأثير حضارة في أخرى سلباً أو إيجاباً.

١١- إن موت الحضارات أمر طبيعي، وهو سُنّة من سنن التأريخ الإنساني كالإنسان نفسه، ولابد لكل حضارة من عمر لا تتجاوزه فتموت لتظهر حضارة آخرى، ودوام الحضارات من المحالات، ولكن يبقى المفهوم الجوهري للحضارة أي المفهوم النوعي لها، وهذا المفهوم لا يدوم أيضاً لاستحالة دوام البشرية.

١٢- مقولة (إن التأريخ يعيد نفسه): إن كان المقصود هو أن تعود الحوادث الماضية كما حصلت فهو أمر

مستحيل، ولكني أرى أن هذه المقولة يمكن أن تنصرف الى معنىً أعمق وأكثر جدارة بالانتباه، وهو أن تتكرر حادثة ما في الحاضر أو المستقبل من الزمان إذا توافرت لها الأسباب الموجبة لحدوثها كما حصل في الماضي من الزمان. وهذا ينفعنا في فهم التأريخ وفق عامل الأسباب والمُسبّبات ويمنح منهج التأريخ صفة علمية عملية؛ فالعبرة – إذن – في مقوله (التأريخ يعيد نفسه) ليست في خصوص الحوادث بل في أسبابها ونتائجها.

١٣- إن قيام حكومة عالمية ذات حضارة مختارة أو مزيج من الحضارات أمر أستحالته أكثر من استحالة (جمهورية أفلاطون)؛ فالظروف الموضوعية لقيام دولة عالمية من الدول المعروفة في القرن الماضي والقرن الحالي لا يمكن ان تستثمر لإيجاد مثل هذه الحكومة، وحتى (العولمة) بمختلف مضامينها وأقسامها تكاد تقترب من الفشل الذريع. إن بقاء الدول ذات البعد الإمبريالي لا يمكن

إحرازه ولو على المدى المتوسط أو البعيد إلا على افتراض (خَطَرٍ ما) أو (عدوٍّ ما) ليتمكن اقتصادها من الاستمرار بفعل الحروب والنزاع بين الشعوب المُسْتَضْعَفه بعوامل خارجية مفتعلة خدمة لـ (ماكنة) الإنتاج ولاسيما الإنتاج الحربي. ولذلك استثمرت مثل هذه الدول نظرية (صراع الحضارات) لخدمة اغراضها الخبيثة. إن تصور عالم خالٍ من الحروب والصراع، واقتصاد مزدهر للشعوب كافة لتصور يفوق الخيال تحقيقاً ما دامت الظروف الموضوعية لعالمنا هذا باقية على ما هي عليه أو منحدرة الى ما هو أسوأ.

المطارحة (١٢): روح الحضارة والتراث الاجتماعي:

يرى توبيني صعوبة انتقال روح الحضارة والتراث الاجتماعي الى مكان آخر قائلاً: (إن التراث الاجتماعي لا يقبل الانتقال الى مكان آخر بسهولة؛ فأرواح الحضارة هم أرباب البيت

الذي هم فيه في وطنهم، وهم عباقرته الأوصياء عليه، وثمة انسجام قديم بينهم وبين سكانه، وحينما تنتقل هذه الأرواح الى بيت يسكنه قوم غرباء تتحول الى شياطين تعيث في الأرض الفساد، ذلك بأن هؤلاء الغرباء يجهلون بالطبع الشعائر الدقيقة التي ترضي أرواح آلهتهم الجديدة).

تعليق: إن كان توينبي يعني بروح الحضارة والتراث الاجتماعي النواة الصلبة لحضارة ما فهو مصيب في رؤيته، وإن كانت عباراته تميل الى التعميم وتغفل عن مبدأ التأثير والتأثر فقد جانب الصواب لأن تقادم هذا المبدأ قد ينقل المتأثرين من طور التقليد الى طور التجديد والاستيعاب وما يمكن تسميته بـ (الصّهْر الحضاري)، ولدينا الحضارة الإسلامية خير مثال ؛ فبعد قرون من انتقال الإسلام الى عموم الشرق الأدنى والأوسط ووسط آسيا وشرقيها جعل شعوب تلك البلدان تستوعب ما جاءها من الغرباء وأثمر حضارة رصينة أطلق عليها الحضارة الإسلامية مضيفة إليها

من تراثها وخصائصها على نحو لا تبدو فيه مقلدة بل مجدده ومبتكرة.

المطارحة (١٣): المعتقد والمعرفة وصلتهما بالحضارة:

قال غوستاف لوبون: (المعرفة عنصر الحضارة الأساسي، وهي العامل الكبير في ارتقائها المادي، وأما المعتقد فهو الذي يرسم وجهة الأفكار ومن ثم وجهة السير) وقال أيضاً: (المعتقد والمعرفة هما التأريخ كله والحضارة كلها).

تعليق: إن الجمع بين المعتقد ومنه الدين، والمعرفة يعني الإشارة الواضحة من لوبون الى العناصر الأساسية لتكوين أي حضارة ، ولكن المعرفة لا تقتصر فقط على الارتقاء المادي للحضارة بل تشمل أيضاً ارتقاءها الفكري، وكثير مما يعتقده الناس ويؤمنون به ذو أثر فاعل في نشأة الحضارة وتكونها، ولكن استمرارها وانتشارها واكتمالها يعتمد على ايجابية تلك المعتقدات ومدى صحة مقدماتها؛ فالكنيسة

الكاثوليكية في القرون الوسطى – مثلاً – لم تستثمر إرهاصات المعرفة وبداية ظهور العلوم المادية بل على العكس حاربتها في مجالات كثيرة كالفلك والطب والرياضيات.

المطارحة (١٤): المرئيات العقلية والمرئيات البصرية :

قال آرنولد توينبي:(إن التناسب بين المرئيات العقلية لا يرى حقيقته إلا حينما تكون هناك مسافة معينة بين الرائي والمرئي، شأنه في ذلك شأن التناسب بين المرئيات البصرية).

تعليق: أراد توبيني المقارنة بين الرؤى العقلية والرؤى البصرية؛ فهو ينظر إليهما من حيث التناسب نظرة واحدة وبضرورة مسافة بين من يرى عقلاً أو بصراً وما يراه. وأظن أن التناسب الذي يعنيه هو التناسق بين المرئيات عقلية أو بصرية، وأما المسافة بين الرائي والمرئي لإدراك حقيقة ما يراه فهي مدى القرب من الفكرة أو الصورة في الواقع المشهود؛

فإذا كان هذا هو المقصود فإني لا أرى وجهاً للمقارنة إلا بحدود فهم الفكرة أو الصورة بمعنى إدراكها لأن ما يراه العقل لا يكون إلا مجرداً بخلاف ما يراه البصر فهو محسوس منظور، وبين المجرد والمحسوس فرق الإدراك إذ هو في المعقول إدراك تخيلي وفي المحسوس إدراك واقعي.

المطارحة (١٥): صراع الحضارات:

قال توينبي في آواخر الأربعينيات من القرن العشرين: (أظن أن مؤرخي المستقبل سيقولون إن الحاثة االكبرى في القرن العشرين هي اصطدام الحضارة الغربية بسائر المجتمعات الأخرى القائمة في العالم إبّان ذلك العصر. وسيقولون عن هذا الصدام إنه بلغ من القوة والشمول بحيث أدى الى قلب حياة ضحاياه رأساً على عقب وبطناً لظهر وأثّر بشدة في سلوكهم وآرائهم ومشاعرهم وعقائدهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، ومسّ من أوتار الروح ما لا تمسه القوى المادية الخارجية

وحدها مهما بلغت من شدتها وهولها. إنني أعتقد أن هذا ما سيقوله المؤرخون الذين ينظرون خلفهم الى عصرنا حتى من تلك السنة القريبة منا وهي سنة ٢٠٤٧م).

تعليق: هذا كلام مؤرخ كبير ومفكر استشرف المستقبل من خلال دراسته التحليلية للتأريخ. كلام قاله في آواخر الأربعينيات من القرن العشرين، وتنبّأ بمثله قريباً من منتصف القرن الحادي والعشرين، أي قرننا الذي نعيشه الآن وسيعيشه أولادنا وحفداؤنا.

إن (حرب الحضارات) أو (اصطدام الحضارات) أو (صراع الحضارات) سمّها ما شئت أمر لابد من وقوعه بحكم حركة التأريخ والوقائع والتغير المضطرب للسياسات الدولية والمسار الاقتصادي للعالم، يضاف الى ذلك كله أطماع الإمبراطوريات الحقيقية في عالم ما بعد الحداثة ولاسيما

الولايات المتحدة والدول الغربية والصين وروسيا. إن هذا الصراع سيؤدي – بحسب ما خطط له – الى ما يأتي:

١–انهيار أنظمة وتقسيم جغرافية بعض الدول.

٢–حروب داخلية في الأعم الأغلب تتطور الى حروب إقليمية وربما الى حروب دولية عالمية.

٣–دمار البنى التحتية في أماكن الصراع، وقتل المزيد من البشر ربما يصل الى عشرات الملايين، والتهجير القسري، والتغيير (الديموغرافي)، والقضاء على الأقليات، وتشويه العقائد الدينية والانتماء الوطني والقومي للشعوب.

٤–الصراع على موارد الطاقة ولاسيما الغاز قبل النفط، وعلى الممرات البحرية والبرية، واستنزاف أعظم موارد الشعوب الشرقية والإفريقية ولاسيما الشرق الأوسط.

وئمة سؤال في غاية الخطورة والأهمية، وهو: هل سيؤدي صراع الحضارات الى ما استهدفه مروجوه وصانعوه وممولوه

ومنفذوه؟ ... الجواب: لا، إنه سيؤدي الى عكس ما سعوا له وخطّطوا، لسبب واحد وهو أنهم اصطنعوا الصراع ولم يتركوه لحينه ولأسبابه الموضوعية.

إن صراع الحضارات المصطنع هذا سينتهي – يقيناً – بعد زمن أقصاه قرن واحد، وسيؤدي الى انهيار الحضارة الغربية وانتصار الشرق على الغرب، لأنه سيظهر في الشرق ضرب آخر من هذا الصراع وهو الصراع غير المصطنع الذي تسببه التغيرات الموضوعية، لا الصراع الذي تصطنعه إمبراطوريات الغرب لجني الثمار قبل نضوجها.

المطارحة (١٦): النظر في التأريخ على أساس الحضارات لا على أساس الدول:

قال توبيني: (... فالحضارة الغربية التي أنتمي إليها أنا وأنت قد تعيش قروناً بعد أن تختفي المملكة المتحدة والولايات المتحدة من خريطة العالم السياسية كما اختفت أختان

معاصرتان لهما من قبل: جمهورية البندقية، وملكية النمسا والمجر الثنائية. وهذا أحد الأسباب التي حملتني على أن أطلب إليك أن تنظر في التأريخ على أساس الحضارات لا على أساس الدول، وأن تنظر الى الدول على اعتبار أنها ظاهرات ثانوية وسريعة الزوال في حياة الحضارات التي تبزغ هذه الدول وتغرب في سمائها) .

تعليق: هذا ما أشرت إليه سابقاً في المطارحة (١١) ضمن عناصر الجوهر الحضاري، ولكني لا أرى ثم مقارنة تجمع بريطانيا والولايات المتحدة، فالأولى صاحبة حضارة تمكنت عبر قرون من جعلها رصينة، ومنها على وجه الخصوص امتدت الى الولايات المتحدة، أما الولايات المتحدة فتفتقر الى شيئين أو عنصرين أساسيين من عناصر التكوين الحضاري : القومية أو المعتقد ووحدة التركيب الاجتماعي، ولذلك يمكن أن توصف بأنها ذات مدنية مادية صرفة؛ فالأمريكان بعد أن أبادوا أكثر من مائة مليون من الهنود الحمر أصحاب الأرض

الأصليين ينحدرون من أمم وشعوب متباينة، والوافدون إليها من أقصى الأرض الى أدناها – وإن كان الأوربيون يمثلون الغالبية – اختلطت بهم شراذم من القتلة والسجناء والأشرار أو ممن يبحث عن حياة جديدة تقيه الفقر والعوز، ولذلك لا يمكن أن تبقى حضارتها كما يزعم توينبي بعد سقوطها، لأن سقوطها يعني رجوع شعوبها الى أصولهم الحضارية والتأريخية ومحو ما كان يسمى في يوم من الأيام بـ (الولايات المتحدة الامريكية). وهذا الأمر لا ينطبق بتاتاً على بريطانيا، فقد تأسست الحضارة الأوربية الحديثة بأبعادها المادية والفكرية والفلسفية والدينية في أربع دول أوربية رئيسة وهي: فرنسا وألمانيا وبريطانيا وإسبانيا.

المطارحة (١٧): عودة سيادة العالم الى الشرق:

قال توينبي مبيناً رؤيته المستقبلية للسيادة في العالم وأنها ستؤول الى شرق آسيا ويعني بذلك الصين وحواليها: " في

القرن العشرين بعد أن خسر غرب أوربا سيطرته العالمية بسبب أنه شنّ حربين طاحنتين بين الأشقاء انتقل الدور الرئيس الى الولايات المتحدة، كأن السيادة الأمريكية ستكون قصيرة الأجل كما كانت السيادة المغولية. إن المستقبل لغز لكن يبدو أنه من المحتمل أن القيادة قد تنتقل من أمريكا الى آسيا الشرقية؟.

تعليق: الظاهر من وقائع الأحداث في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين سواء كانت سياسية أم أقتصادية أم عسكرية أن العالم يتجه الى تعدد الأقطاب، وأن القطب الواحد الذي تتمسك به أمريكا بأسنانها لا يدوم كثيراً وأن أسنانها ستتقلع الواحدة تلو الأخرى تدريجياً، والظاهر أيضاً أن بزوغ شمس القيادة ذات الأقطاب المتعددة في شرق آسيا ووسطها والشرق الأسوط قد بدأ مع أفول نجم الولايات المتحدة وأوربا. وعلى الرغم من أن المستقبل لغز محير كما قال توينبي إلا أن

الأحداث والوقائع تشير الى نهضة قوة كبيرة يمكن تسميتها بـ (القوى الأوراسية)، ونواتها روسيا والصين وإيران الإسلامية.

المطارحة (١٨): قيمة العمل:

ظهرت في أوربا في القرن الثامن عشر جماعة تبنت فلسفة ذات بعد إنساني وعملي، ودعت الإنسان الى العمل وعدّت العمل أساس الحياة. وانتشرت هذه الفلسفة في أوربا وأطلق على تلك الجماعة مصطلح (المتطهرين). قال (ترندورف) زعيم المتطهرين في ألمانيا (القرن الثامن عشر): (يعمل الإنسان لا ليعيش فحسب، بل يعيش ليعمل. وإذا لم يكن للإنسان عمل يقوم به فهو إما أن يتعذب وإما أن يموت).

تعليق: إن قياس العمل بالحياة أو الموت فيه مغالطة كبيرة؛ فالإنسان يجب أن يعمل لسدّ حاجاته المعيشية، ولكنه يعيش ليعمل فقط كما تبنت فلسفة المتطهرين هؤلاء فهو أمر يتساوى فيه الإنسان والحيوان، فالحيوانات دائمة الحركة، وحركتها

هذه هي ضرب من العمل لاستحصال رزقها، ولولا ذلك لهلكت من الجوع. أما الإنسان فهو مدعو الى غير العمل من الأنشطة الحياتية ذات الصفة الذهنية والفكرية والسلوكية، ولذلك كان العقل والإدراك والتمييز من أهم صفاته المنفردة؛ فنحن نعيش لنعمل ونفكر ونتعلم ونُعلّم ونبتدع العلوم والمعارف بمختلف أنواعها لخدمة الفرد والجماعة أو سلباً لقتلهم كما يحصل عند علماء السوء في اختراع أسلحة فتاكة، وأهم من ذلك كله نعيش لنؤمن ونعتقد ديناً أو فكرة أو فلسفة، ولا يمكن أن تقتصر الحياة على العمل فقط. وإذا كان مفهوم العمل عند المتطهرين هو العمل المعيشي وغيره من الأعمال مجردة كانت أو محسوسة فمقولتهم صائبة، ولكني أستنتج من كلام زعيمهم الألماني المذكور آنفاً أنه يعني العمل المادي المعيشي كالأشغال في مختلف الحياة المدنية.

المطارحة (١٩) : قيمة العقل :

قال (راندال) في بيان قيمة العقل في النهضة الأوربية : (... كان المذهب العقلي الديكارتي أكبر عامل فردي صان فرنسا من الغرق في الجمود العقلي الذي ميّز البلاد الكاثوليكية منذ الإصلاح الكاثوليكي ودفعها بدلاً منه في طريق البحث والتساؤل الذي اتبعته البلاد البروتستانتية).

تعليق: عوّل ديكارت في منهجه الفلسفي على الرياضيات، فرأى فيها خير معين لفهم الحقائق لأنها علم مجرد عقلي لا يقبل الشك، وانتهى الى وضع نظريته في الوجود معتمداً على العقل، وذهب الى أن الفكر الذي مصدره العقل سبب في الوجود في مقولته المشهورة:(إني أفكر إذن أنا موجود).

إن ظهور المنهج العقلي الديكارتي في النهضة الأوربية كان إسهاماً حقيقياً في تطور نظرية المعرفة، بيد أن هذا المنهج قد تعرض للنقد والفحص والتمحيص سلباً وإيجاباً بعد ديكارت

عند (كانت) وغيره من أتباع المدرسة المثالية الألمانية، إذ ألف (كانت) كتابيه المشهورين: (نقد العقل المجرد)، و(نقد العقل العملي)، وما يعنينا من هذا الأمر أن نسأل بعض الأسئلة للوصول الى ما نراه تمييزاً حقيقياً للمعرفة، منها: ما المقصود بالعقل؟ أهو العقل الفردي أم العقل الجماعي؟، وإذا استبعدنا العقل الجماعي لأنه كثيراً ما يوقع في اللبس والإيهام والتشتت والمغالطة والتغير السريع، وربما يوصلنا الى الوقوع في خطأ كبير لتعذر تحققه إلا في موارد قليلة سريعة الحصول وسريعة الذبول والانحسار، وفي مجالات هشّة لا تنفع لجعلها منهجاً أو سبيلاً لإدراك الحقائق، فلابد لنا – والحال هذا – أن نعتمد على العقل الفردي.

وإذا اعتمدنا على العقل وافترضنا أنه قد يكون لدى بعض المفكرين النابهين النابغين منهاجاً للمعرفة فإن العقل نفسه يفترض صعوبة تحقيق هذا الأمر.

ولنعد الى مقولة ديكارت المذكورة آنفاً: (أنا أفكر إذن أنا موجود) ونسأل ما الفكر؟ لأنه لو اهتدينا إليه لفهمنا معنى العقل فهماً نسبياً فيه شيء من الوضوح. ولنطرح جانباً ما قيل في تعريف العقل في المدارس الفلسفية التقليدية وفي التراث الفكري الديني في الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى وعصر النهضة ، لنترك ذلك كله ، ونترك أي تعريف جاهز للاقتباس من أي مصدر كان ؛ فإذا أخذنا بهذا المبدأ الفردي فإننا لا نصل الى توضيح المراد على وجه التقريب أو الظن ناهيك عن اليقين من الفكر الذي هو تبع للعقل، فالمسألة – إذن – فردية ، وليس كل الناس يفكر ويستنتج كما يفكر ديكارت وغيره من الفلاسفة العقلانيين، ولك أن تقول – على سبيل المثال – عكس المقولة الديكارتية: (أنا موجود إذن أنا أعقل وأفكر)، ويكون بذلك الوجود مصدراً للعقل والتفكير، وهذا عندي أقرب الى القبول لأن الوجود

أساس كل شيء موجود مادة وروحاً وجسداً، حياة أو جماداً أو إدراكاً للمجردات بحسب عقل الإنسان المحدود.

المطارحة (٢٠): التبدل الحضاري:

قال كلوكهون: (إن أي تبدل في الحضارة ينظر إليه بصورة عامة على أنه تهديد لها، فلو لم تكن العادات والتقاليد ثابتة لما استطاع أحد أن يتنبأ أو يستنتج بدقه تصرفات رفاقه في المجتمع؛ ومن هنا يتهم مخترعو البدع بـ (مهاجمة عاداتنا المقدسة). والعادات الحضارية وسائل مغرية جداً للتفريق بين المجموعات الداخلية والخارجية بالنسبة الى المجتمع، وبين المواطنين والأجانب، وبين المتمدنين والمتوحشين، وبين الأذكياء والملحدين الجهلة، بل بين الخبيث والطيب أيضاً؛ فالأفراد ليسوا آلات عضوية تعطي استجابة ثابتة للمؤثرات).

تعليق: كلام كلوكهون فيه الشيء المستحسن من الصحة، ولكن أيعد ثبات العادات والتقاليد ثباتاً دائماً أو ثباتاً نسبياً يتغير بتغير أسباب الحضارة ومُسبّباتها؟

إن الخصائص الأصيلة أو ما سميناه بالعناصر الأساسية والتي تحمل النواة الصلبة في كل حضارة تكاد تكون من المسلمات لكثرة الشواهد عليها في تأريخ الحضارات، ولكن الحضارة كأي عامل من عوامل التأريخ لا يمكن أن تكون ثابتة؛ فالتغير يحصل لها على مر العصور مع الحفاظ على عناصرها ونواتها. ويمكن أن يقال إن أي تبدل في العناصر الأساسية سيمس حتماً نواتها الصلبة، وإذا ما حصل ذلك آذنت تلك الحضارة بالأفول واقترضت من غيرها أسباب وجودها وأضحت حضارة مستعارة.

المطارحة (٢١): الصلة بين الحضارات والشخصيات:

قال كلايد كلوكهون في بحثه المعنون بـ (الأنثروبولوجي الحضاري): (نحن نعرف من تجاربنا الاعتيادية أن كل شخصية يمكن أن تعد من وجوه معينة فريدة متميزة، ومن أخرى تشبه شخصيات معينة، أو من وجوه قليلة تشبه الشخصيات البشرية. وتنطبق هذه الحقيقة على الحضارة؛ فهل هناك علاقة منتظمة بين التشابه في الحضارات والتشابه في الشخصيات؟)، ويعني بذلك التشابه بين المستويات الثلاثة للشخصيات في كلامه وبين الحضارات، وبتعبير أدق التمييز بين ثلاثة مستويات للحضارات: حضارة فريدة، وحضارة تشبه حضارات معينة، وحضارة تشبه الحضارات كافة.

تعليق: إن التمييز بين الأصالة والتشابه والاستعارة بين الحضارات له كلفة بيان الخصائص والصفات بينها مع

مجمل الفروق. وأرى أن الحضارة الأصيلة وتلك التي أخذت من غيرها وصبّته في قالبها الخاص هي ما يمكن تسميتها بـ(الحضارة)، وأما المستعارة من غيرها فلا يمكن أن توصف بالحضارة إلا من باب المجاز والتساهل.

المطارحة (٢٢): الحقيقة والوجود:

إذا كنا نشك في كل شيء موجود محسوساً كان أو مجرداً فإننا يقيناً لا نشك في وجودنا، لأن مجرد شكنا دليل على حالة وجودية. ولكي نصل الى إدراك الحقيقة، وأعني بذلك حقيقة الموجودات لابد لنا أن نبدأ بوجودنا؛ فالحقيقة – إذن – هي الوجود وكوننا موجودين، وهذا الوجود يمنحنا خاصية التفكير أي العقل وإدراك الأشياء محسوسة كانت أو مجردة.

المطارحة (٢٣): الزمان والتحول:

(الزمان) في مفهومنا البشري على الأرض التي نعيش عليها، وعلى مدى الكون الذي نراه هو مصطلح (انطباعي عرفي)

يرتبط بالشمس ودوران الأرض حولها وحول نفسها ودوران القمر حول الأرض ودوران المجرات وأبعادها بالسنين الضوئية؛ فحقيقة الزمان مرتبطة بدوران الأفلاك، والدائرة في حقيقتها ليس لها بداية ولا نهاية، وكل نقطة في محيطها تصلح أن تكون بداية ونهاية. إن دوران الأفلاك هذه لا نهائية، وجدت هكذا وستظل هكذا الى ما شاء الله لحكمة إلهية ندرك أقلها وتخفى علينا أكثرها.

ويترتب على ذلك كله أن الزمان ما هو إلا تبدل وتغير في الموجودات مستمر ما دامت حركة الأفلاك الدائرية موجودة؛ فذوات الأرواح على الأرض – مثلاً – ومنها الإنسان يطرأ عليه التبدل والتغير من طور الى آخر منذ ولادته الى مماته، ثم يبدأ جيل آخر على النسق نفسه.

إن تعبيرنا عن الأشياء بأنها كانت في الزمن الماضي أو كائنة في الزمن الحاضر أو ستكون في الزمن المستقبل لا

يمت الى الحقيقة بشيء؛ (فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل وإنما تغير وتبدل مستمرين في نمط الأشياء).

المطارحة (٢٤): العقل والقلب والإيمان:

إننا ندرك الأشياء إدراكاً جزئياً لأننا ندركها بعقولنا المحدودة القاصرة عن الإدراك المطلق. وإذا آمنا بوجود الله تعالى عن طريق العقل كان إيماننا محدوداً، ولكننا إذا اتخذنا سبيل القلب المعبّر عن الضمير الكائن في فطرتنا منذ أن خلقنا فسنجد متسعاً أكبر بكثير من متسع العقل للإيمان، ويترتب على ذلك (أننا بعقولنا نستدل وبقلوبنا نؤمن). قال الشاعر في رباعية:

لا تَنَمْ يا صاحِ في هذا السُحورِ
قِبْلةُ الأسرارِ في فَجْر الظُّهورِ
إنمــا الليــل سَـرَابٌ مـن ظلامٍ
ليس ماءً بل طريــقاً في قُبورِ

وإذا سأل سائل عن السؤال الساذج السطحي المتداول بين الماديين الملحدين، وهو : إذا كان الله قد خلق الكون والعالم جميعاً فمن الذي خلقه ؟ !!!

هذا السؤال يدل على سخف سائله، لأنه يأتي سائل آخر ويسأل: لو سلّمنا بأن لله خالقاً فمن خلق الأول أي مَنْ خلق الذي خلق الله ؟!!! فيحير المسؤول جواباً لأنه لو سلّم بذلك لوقع في (الدّوْر) ولا نهائية عدد الخالقين والمخلوقين، وهو دليل على العجز المطلق، والله تعالى يتصف بالقدرة المطلقة ولا يحتاج في وجوده الى مَنْ يوجده، ولا يمكن أن نقيس بعقولنا المحدودة العاجزة ما هو مطلق الوجود والقدرة. ويترتب على ذلك أن الله له الحقيقة المطلقة والقدرة المطلقة والخلق المطلق، لا بداية له ولا نهاية، ولا يُكيّف بـ (كَيْفَ)، ولا يُويّن بـ(أيْنَ)، ولا يمكننا أن نصل الى كُنْه ذاته لأن العاجز المُقيّد لا يستطيع أن يصل الى القادر المطلق.

المطارحة (١٥): اللغة وما وراء اللغة:

إن الكلام على اللغة والتعريف بها من المسائل التي لم تتضح كما ينبغي على الرغم من تعدد المدارس اللغوية قديماً وحديثاً. وقد يتبادر الى الذهن أني أريد أن أصف البنى الصوتية والصرفية والنحوية والقواعدية والدلالية ، أو أريد أن أفصل بين العناصر اللغوية البحتة وغير اللغوية في الحدث اللغوي وجمعهما في فهم الدلالة، هذا ما لا أريده بل أسعى لنظره جديدة أو مستجدة في فهم اللغة وما وراء اللغة، ولا أدعي أني ابتكرت منهجاً جديداً بل أزعم أن لي رؤية قد تكون جديدة، فأقول: إن الكلام الذي هو مادة اللغة وجد مع وجود البشرية على الأرض بغض النظر عن ماهيته وتركيبه سواء بدأ بالإشارة والإيماء ثم انتهى الى تراكيب صوتية وصرفية مهدت الى تراكيب نحوية واتخذت من المفردة أو الجملة مادة في توضيح المقصود أي دلالة تلك التراكيب.

إن أسئلة تطرأ على بال الباحث في كيفية نشأة اللغة، وكيفية تفرعها الى لغات، وكيف كان الأولون الأقدمون من سكان الكهوف والمغارات يتفاهمون فيما بينهم؟ هذه الأسئلة وغيرها تستوقف الباحث، ولكني أترك الخوض فيها لأن جُلّ ما قيل في الموضوع لا يتجاوز التكهنات، غير أن الثابت الذي لا يحتاج الى دليل حاسم أن البشر كانوا يتفاهمون فيما بينهم: الأفراد والعوائل والجماعات، وهذا الذي يتفاهمون هو ما أسميه لغة. نستنتج مما تقدم ذكره أن شطراً كبيراً من المسافة الزمنية بقي مجهولاً.

ولكي أوضح ما أريد بيانه ألفت النظر الى الملاحظات الآتية:

١-إن ما اصطلح عليه في علم اللغة الحديث (اللسانيات) بـ(الجهاز النطقي) لدى الإنسان ووصف بأنه مصطلح عام من باب التجاوز، لأن هذا الجهاز الذي يبتدأ من الرئتين بضخ الهواء في حال الزفير الى القصبة الهوائية

وينتهي بتجويف الفم والأنف له عمل أساسي آخر؛ فالرئتان للتنفس وتجويف الفم بما في ذلك اللسان والأسنان له وظائف أخرى كمضغ الطعام والتذوق...الخ، ومثل هذا التعليل لا يمكن قبوله، فبعض أعضاء الإنسان لها أكثر من وظيفة، ولماذا لا يكون جهاز النطق كذلك.

٢-تكاد تجمع المدارس اللغوية الحديثة على أن اللغة اكتسابية وليس لها صلة بالفطرة، أي بالخِلْقة. وهذا وهم كبير لأن وظائف الجسم الأنساني وأعضاءه المختلفة منقادة الى قوانين دقيقة متوازنة، وقد كشف العلم الحديث عما يعرف بـ (الجينات الوراثية) وأنواعها المختلفة وتأثيرها في البنية الجسدية والنفسية للإنسان، هذا فضلاً عن الوظائف (الفيزيولوجية) كالطعام والتنفس والشهوة الجنسية وفضلات الإنسان ... الخ، والسؤال الذي يطرح في هذه المسألة هو: هل يمكن أن تكون اللغة فطرية؟ لا بمعنى أنها وحي وتعليم من الخالق للإنسان الأول كما

ذهب بعض المفسرين المسلمين في قوله تعالى: ((وعلّم آدم الأسماء كلها– البقرة :٣١))، بل بمعنى الاستعداد الفطري بالقوة لا بالفعل لاكتساب اللغة. وهذا ما أميل إليه وتؤيده شواهد أهمها اختلاف لغة الإنسان عن لغة الحيوان.

٣–إن اختلاف اللغات والألسنة لدى الشعوب قديماً وحديثاً من الأمور المستعصية على الفهم، ولا يمكن الوصول الى نتائج مقنعة في هذه المسألة. ومما لا ريب فيه أن البشرية لم تبدأ بتعدد اللغات بين جماعات الإنسان البدائي، ولابد من أنهم صدروا جميعاً من لغة واحدة، ثم تفرقت بينهم السبل واشتقوا من تلك اللغة لغات ولهجات أخرى، وهذا ما تشهد به اللغات في العصور الوسطى والحديثة في أوربا – مثلاً –، فمن اللاتينية اشتقت لغات عديدة.

٤-يجب التفريق بين اللغة و (ما وراء اللغة) من حيث الخصائص والبنية والمستويات؛ فاللغة هي هذا الكلام المتداول بين الناس وما تعارفوا عليه من المعاني بغض النظر عن مدى وضوحها أو استغلاقها عن الفهم، وهي في التحليل مترابطة فيما بينها؛ فالأصوات مرتبطة بالصرف، والصرف مرتبط بالنحو، ومنهما تتكون قواعد اللغة، والمستويات الثلاثة المذكورة آنفاً مرتبطة بالدلالة، ولا يمكن التفريق بينها بمعنى عزلها عن بعضها إلا لغرض الدرس الوصفي والتحليلي لأنها تتجه كلها الى التركيب الدال على المعنى المقصود أو المراد فهمه أو إيصاله.

وأما (ما وراء اللغة) فهي أمور متشابكة معقدة من التوجه السلوكي والنفسي للأفراد والجماعات، والأعراف الاجتماعية المتصلة بالعادات والتقاليد والعقائد والأديان والأفكار، وانتهاءً الى ما يحيط بالمتكلم والمتلقي من حيث

الفهم والاستيعاب أو خلافهما، ويدخل في ضمن ذلك حال الفرد والجماعة من حيث الصحة والمرض، والمناخ، والعوارض السياسية والاجتماعية والاقتصادية... الخ.

٥-ونستنتج مما تقدم ذكره أن اللغة لدى الإنسان لها صفة فطرية من حيث الاستعداد، وأجهزة وظيفية في تأدية هذا الاستعداد، يضاف إليها وظائفها الأخرى، ويجتمع ذلك كله مع عناصر ما وراء اللغة لتكوين الحدث اللغوي؛ واللغة بهذه المعايير عملية معقدة مجزأة من حيث التكوين موحدة من حيث الأداء.

المطارحة (٢٦): ما الدلالة؟

سؤال يطرح كثيراً ويجيب عنه علماء اللغة والمعنيون بها أجوبة مختلفة بحسب مدارسهم اللغوية ومناهجهم في البحث اللغوي، أهي المعنى؟ أو أعمّ من المعنى؟ وهل الدلالة والمعنى كلمتان مترادفتان؟ وكيف لنا أن نوضح المقصود

بالدلالة؟ أو بتعبير آخر ما المقصود بمعنى المعنى؟ وكيف نحلل المعنى ونصفه ونصوغ منه أشباه القواعد؟ وهل المعنى هو معنى المفردة أو العبارة أو الجملة أو النص بأكمله؟ وكيف ندرك الأشياء في وجودها المادي المحسوس أو معانيها العقلية؟ وهل الإدراك جزء من فهم المعنى؟ وكيف نفسر اختلاف المعاني باختلاف المتلقين؟ ... الخ من الاسئلة التي تحتاج الى أجوبة مقنعة للباحث اللغوي.

ولست هنا بصدد تعدد المناهج والمدارس اللغوية في فهم الدلالة، فالحديث يطول ولا نصل فيه الى نتيجة أرتضيها، ولكني أزعم أني قد أقارب المسألة مقاربة مستجدة إن لم تكن جديدة. ولنأخذ مثلاً بسيطاً من أمثلة المفردات في اللغات لتوضيح مقاربتي، والمثل هو كلمة (كُرْسيّ)، وهي كلمة لا تنأى عنها لغات العالم الحية المعروفة، تطلق كلمة بأي لغة كانت لتدل على معنى الكرسي، ولكن هذا المعنى عام يتمحور على شيء يجلس عليه. وهل ينفع مثل هذا التفسير؟

الجواب: لا، فما معنى الكرسي؟ من أي شيء يتكون؟ ما حجمه؟ وما لونه؟ ما هيأته؟ كيف يمكن الاستفادة منه للجلوس وغيره؟ وماذا يعني الجلوس؟ أهو عن قيام أو انحناء؟ أهو جلوس حقيقي أو مجازي؟ ... الخ من الأسئلة التي تحتاج الى شرح وتوضيح لرفع الإبهام والإيهام عن المتكلم والمتلقي على حدّ سواء.

إننا نطلق الكلمات بحسب ما تعارفنا عليه في لغتنا ونعتقد أننا أدركنا معانيها كما ينبغي فضلاً عن إيصالها الى المتلقي، والحقيقة هي غير ذلك، إن فهمنا لمعاني الألفاظ تتحكم فيه مسائل أخرى غير المسائل اللغوية ، ولذلك يجب أن لا نبالغ في إدراكنا معنى ما يقال، إننا ندرك تلك المعاني بمقدار إدراكنا للعناصر اللغوية وغير اللغوية المتصلة بها ، أي إن أدراكنا ناقص، ويترتب على ذلك أن المعاني ناقصة أي دلالاتها، ولذلك كانت مسألة الدلالة من أكثر المسائل اللغوية تعقيداً، ومهما قيل فإن فهمنا سيظل قاصراً ناقصاً، وإذا ما

سؤلنا عن فهم المراد من الكلمة الفلانية أو الجملة الفلانية فإننا سنبادر من فورنا هذا الى الجواب: نعم، فهمنا معنى الكلمة أو الجملة، غير أن العجلة في الجواب لا تكون دليلاً على فهمنا معنى تلك الكلمة او الجملة، ولكننا في الأحوال كلها (ندرك) المعنى بغض النظر عن مدى هذا الإدراك : كاملاً أو ناقصاً، صحيحاً أو خلاف ذلك.

وإذا كان هذا هو ما نعنيه بدلالة الكلمات والجمل علمنا أن إدراكنا قد حصل وتحقق، ولكننا نعجز عن إيصاله كما يجب الى أنفسنا والى غيرنا. وحصيلة ذلك كله أن الدلالة جزء من الإدراك الناقص للأشياء مغلفة بألفاظ وعبارات وجمل إذا حملناها على الأداء اللغوي، أي الكلامي، وهي مستقرة في (اللاوعي) واللاشعور تطفح أحياناً فيعبر عنها بالأداء الكلام وتستبطن أحياناً أخرى فتبقى في (برزخ) اللاشعور لدى الإنسان.

المطارحة (٢٧): المعنى والسياق (أبعاد نسبية):

من المباحث الدلالية في علم اللغة الحديث الكلام على السياق والتفريق بين المعنيين المعجمي والسياقي؛ فالمسألة مرتبطة بديوان الألفاظ أو بالثروة اللفظية لكل لغة سواء دونت بين دفتي كتاب أو بقيت محفوظة في العرف الاجتماعي.

إن دلالة الكلمة على أكثر من معنىً يحددها المعجم، وانفرادها بمعنىً واحد يحدده السياق، هذا من فذلكات اللغويين، ولكننا لو أمعنا النظر في كلمة ما وردت في سياق معين وتحددت معانيها لوجدنا هذا السياق أيضاً كالسراب تراه من بعيد كأنه ماء ولكنه في الحقيقة ليس كذلك بل خداع للبصر. ولنضرب مثلاً ما لتوضيح المسألة: إذا أخذنا كلمة (ضربَ) في سياقين مختلفين نحو (ضربَ عُمْلة) بمعنى سكّها، و (ضربَ خيمة) بمعنى أقامها وجدنا أن (ضربَ) لها

معنيان مختلفان تماماً: (سكَ– أقام)، ويمكن أن نتفحص هذين المثالين على النحو الآتي:

ضربَ عُمْلة = سك عملة: هل سَكّ فيه شيء من الضغط؟ وإذا كان الأمر كذلك عادت الكلمة الى معناها الأصلي وهو الضرب بمعنى إلحاق الأذى بالجوارح، وهو يتضمن معنى الضغط كقولك: ضربَ الحديد.

والمثال الآخر: (ضربَ خَيْمَة) = أقام خيمة = هل إقامة الخيمة فيه شيء من الضغط؟ والجواب: نعم، لأن إقامتها تتطلب الضغط على أطنابها وعمودها؛ فيعود بذلك معنى الكلمة الى أصله كما في المثال المذكورة آنفاً. ويمكن أن نستنتج من هذين المثالين أن كلمة (ضربَ) لها معنىً واحد انصرفت الى معانٍ أخرى عن طريق المجاز والاستعارة والكناية، وحصيلة ذلك أن السياق له أبعاد نسبية تختلف على نحو ما عن المعنى الأصلي المفترض للألفاظ.

المطارحة (٢٨): المعنى بين المتكلم والمتلقي (وضوح نسبي يشوبه الغموض أحياناً):

إن من أهم المشاكل الدلالية المعنى الذي يراد إيصاله من المتكلم الى المتلقي أفراداً كان أو جماعات. ودلت الشواهد التأريخية على أن بعض الحروب الكبرى التي حصلت في التأريخ كان بسبب ما يطلق عليه (سوء الفهم)، وكذلك الانحرافات التي تمس العقائد والأديان، واستغلال دلالات معينة لتعمد تحقيق مآرب سيئة ونوايا خبيثة ؛ فالمعنى أحدُّ من السيف، والكلمة قد تفجر حرباً عالمية يفنى فيها الملايين وتنتهي بخراب البلاد وتشريد العباد .

ولا ريب في أن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين الأفراد والجماعات سببها عدم فهم المعنى من المتلقي أو سوء فهمه أو غموضه وعدم وضوحه، فتضطرب بذلك العلاقات

الاجتماعية، وقد يؤدي ذلك إذا استشرى بين جماعات الأحزاب والأديان والمذاهب والعقائد الى حروب أهلية.

إن للمعنى بين المتكلم والمتلقي درجات متفاوتة في الوضوح، ولكننا لا نجد وضوحاً تاماً حتى بين معاني الأشياء المادية، وفضلاً عن نسبيتها تكون عرضة لأسئلة تتبادر الى الأذهان. خذ مثلاً قولك لرجل ما: (ناولني الكتاب)؛ فالمتلقي يتبادر الى ذهنه أي كتاب هو المقصود؟ وإذا عيّنت الكتاب في قولك (ناولني كتاب النحو) انكمش عدم الوضوح بعد تحديد مادة الكتاب الى أي كتاب للنحو؟ فالكتب في هذا الموضوع كثيرة، وتضطر أن تُعّين أكثر للمقصود بالكتاب فتقول: (ناولني كتاب النحو المعنون بكذا)، ويترتب على ذلك أيضاً إيهام أن يكون للكتاب عنوان واحد لمؤلفين مختلفين ويقتضي للمتكلم أن يعيّن اسم المؤلف منعاً للبس والخلط بين اثنين من المؤلفين مثلاً، وإذا وصلنا الى هذه النتيجة كانت الجملة على الترتيب الآتي: (ناولني كتاب النحو المعنون بكذا لمؤلفه

فلان). ومثل هذه الجملة واضحة تماماً كما يتبادر الى الذهن، ولكن وضوحها ليس مطلقاً لأن المتلقي يجب أن يكون على دراية بالنحو لكي يعرف موضوعه إجمالاً وأسماء بعض المؤلفين، ويحصل في كثير من الأحيان أن يكون المؤلف غير معروف إلا لعدد قليل من المعنيين بالنحو، وينتج بذلك إيهام آخر للمتلقي وهو جهله بالمؤلف وعدم حصول اليقين عنده بما يحدده المتكلم، لأن الخطأ في الذاكرة وارد أيضاً. ونصل بعد تعدد الأمثلة المذكورة آنفا الى أن وضوح الدلالة بين المتكلم والمتلقي وضوح نسبي وإن لم يشعر به كلاهما.

المطارحة (٢٩): (ظلال المعنى) أساس لمعاني أغلب المفردات المجردة.

التفريق بين المعنيين المركزي المستقر في المعجم، والهامشي المتصف بعدم الاستقرار من مباحث علم الدلالة العام، إذ

نجد أغلب معاني الألفاظ ذات الدلالة المعنوية ابتدأت بالمعنى الهامشي وانتهت الى المعنى المركزي في المعجم بعد حين من الزمن وأضحت من المعاني المستقرة نسبياً إلا إذا تعرضت لعوامل التغيير اللغوية.

المطارحة (٣٠): المعنى بين العقل الجمعي والتدوين المعجمي:

رب سائل يسأل ما معنى المعجم؟، والجواب: إن من الخطأ الجسيم أن نجعل المعجم مجموعات من الألفاظ مرتبة بحسب الحروف في كتاب. هذا لا يصدق عليه إلا القول إنه المعجم المكتوب والمقروء. وأما أساس المعجم فهو ما توافق عليه الناس وتعارفوا من الألفاظ ومعانيها في مجتمع ما واستقر في أذهانهم بعد أمد طويل وأصبح عنصراً مهماً من عناصر لغتهم وحضارتهم. ودعت الحاجة بعد ذلك الى ضرورة تدوين

هذا المعجم في كتاب للحفاظ على اللغة عبر الأجيال يرثها اللاحق عن السابق ولأسباب أخرى غير لغوية بحتة.

المطارحة (٣١): غموض المعنى الادراكي في المعقولات:

إن من أصعب المسائل في البحث الدلالي معاني الألفاظ المجردة، وإذا سلّمنا أن الإدراك هو أساس فهم الأشياء، وأن الناس غير متساوين إطلاقاً في إدراك الأشياء، وأن الإدراك نفسه عرضة للخطأ والإيهام والإبهام تبيّن لنا غموض معنى المعقولات على نحو يثير الكثير من الشك والتردد ويؤجج الكثير من الصعوبات، وربما يؤدي الى اضطرابات اجتماعية أو الى حروب بين الأمم.

المطارحة (٣٢): علم اللغة وعلم الرياضيات:

بين اللغة وعلم الرياضيات وشائج صلة وتشابه؛ فالمستوى الصوتي للغة مؤلف من وحدات صوتية مرتبة على نسق معين لتكوين الكلمة، والكلمات أيضاً مؤلفة من وحدات

صرفية على نغم المقاطع الصوتية/ الصرفية، وهذا الترتيب أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية.

المطارحة (٣٣): علم اللغة وعلم الموسيقى:

علم الموسيقى قائم على النغمات، ويراعى في ذلك طول النغمة وقصرها، وعلوها وانخفاضها، وقيمتها الصوتية، وغلظها ورقتها. وكذلك الأصوات اللغوية لها طول وقصر بحسب الموجات الصوتية وذبذبتها التي تصل الى أذن السامع، ولها علوٌّ وانخفاض بحسب تردد الذبذبات، ولها غلظ ورقة بحسب توالي النغمات طولاً وقصراً، وكلما كانت الذبذبات طويلة كان الصوت غليظاً خلافاً للذبذبات القصيرة المتوالية إذ يكون الصوت رقيقاً، ووفقاً لهذا القانون الصوتي الموسيقي اختلفت أصوات الرجال والنساء، يضاف الى ذلك التشديد المقطعي الصوتي/ الصرفي، والتنغيم الصوتي

للكلمات إذ يدلان على معانٍ معينة ولها دخل في الدلالة الصوتية للألفاظ.

المطارحة (٣٤): كيف تكون اللغة فيما وراء الطبيعة؟

سؤال لا يخطر على بال الكثير من الناس فضلاً عن المعنيين بالدرس اللغوي، ومهما كان جواب هذا السؤال فهو لا يخطو ولو خطوة واحدة عن التخمين والتكهن والافتراض الذي لا يقوم على دليل ملموس أو دليل عقلي مقنع.

إن الديانات السماوية بلّغت عن التواصل فيما وراء الطبيعة بين طوائف الجنّ والملائكة ولكنها لم تخبرنا بالكيفية التي يحصل بها التواصل؛ فالمسألة تختلف اختلافاً جوهرياً عن نشأة اللغة عند البشر، لأننا إذا استندنا الى الفرض والتخمين فيها فلدينا طوائف مختلفة من البشر في العالم الواقعي الحسي، غير أننا لا نملك طوائف من الجن والملائكة

وأشباههما في عالمنا هذا لكي نفترض ونخمن ونستنتج. وتبقى المسالة في عالم الكتمان وأسرار اللغة التي لا نصل الى كنهها أبداً. ويمكن أن نستنتج مما تقدم ذكره أن التواصل بين الموجودات الحية العاقلة فيما وراء الطبيعة حقيقي لا ريب فيه لمن آمن بوجود تلك المخلوقات ولكننا نجهل تماماً كيفية هذا التواصل أ باللغة أو بغيرها أو بما يشبهها؟!!!

المطارحة (٣٥) : اللغة ونهاية البشرية :

كيف يكون التواصل بين الشعوب والأمم في نهاية البشرية؟ وهذا سؤال كالسؤال المذكور في المطارحة السابقة لم يخطر على بال أحد إلا القلة من المعنيين بالبحث اللغوي.

إن الأديان السماوية تبشرنا في نصوصها المقدسة ولاسيما القرآن الكريم بالتواصل بين البشر والكائنات الأخرى العاقلة بعد فناء البشرية في عالم الأرواح ثم في الخلق الثاني، ويفهم من هذه النصوص أنه تواصل لغوي، ولا يمكننا أن نتصور

كيفية ذلك لتعدد اللغات في العالم إلا في حالة واحدة وهي اتفاق العالم في نهايته على كيفية ما للتواصل فيما بين الشعوب من غير لغة عالمية واحدة مصطنعة لاستحالة ذلك.

المطارحة (٣٦): اللغة والتناغم الموسيقي للكون:

ثمة أقوال ونظريات قديمة عند الإغريق وغيرهم تربط نشأة الكون وديمومته بالتناغم الموسيقي، وهي آراء تجد صلة بين الموسيقى الكونية وبين الأجرام السماوية والرياضيات في دورانها حول الأفلاك، فإذا كانت اللغة من الخصائص البشرية وهي تحتل كوكباً صغيراً في حجمه عظيما في أهميته فلابد لها من صلة بالتناغم الموسيقي للكون، ولا أعني أصولها الصوتية وإنما دورانها من جيل الى آخر وبقاؤها ببقاء الناس على الأرض.

ورب سائل يسأل: هل التناغم الموسيقي للكون يشتمل على الموجودات المادية المحسوسة فقط؟ الجواب: لا، إنه لا

يشتمل على المادة فقط وإنما يشتمل على ما يحرك المادة وهو الروح، ولذلك حصل الائتلاف والاختلاف في عالم (الذرّ) بين الأرواح قبل أن تلج الأجساد؛ فالائتلاف تناغم إيجابي، والاختلاف تنافر وتباعد سلبي.

المطارحة (٣٧): لغات الحيوان:

تتحدث بعض كتب التراث في الحضارة الإسلامية وغيرها من لغات لبعض الحيوانات، وورد في النص القرآني ما يشير الى كلام مختص بالحيوان، مثل كلام النمل والهدهد في قصة سليمان (ع)، فهل يعني ذلك أن للحيوان لغة مختصة به كما للإنسان؟ وهل أن المقصود باللغة نظام من الرموز والحركات المعينة للاتصال فيما بينها كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة عن النحل والدولفين مثلاً؟

وذهب الوصف العلمي في علوم الحياة (البيولوجيا) الى أن للحيوانات رموزاً وإشارات وأصوات وحركات وردود أفعال

استجابة لمثيرات معينة لا تعدو وكونها كذلك، ولا لغة بمعنى اللغة الإنسانية لديها.

إني أرى – وهي رؤية شخصية بحتة– أن لبعض الحيوانات لغاتها المختصة بها كما للأنسان، وأن هذه اللغات تختلف من حيث العناصر الصوتية والتكوينية عن لغات البشر، لها نظامها الصوتي ودلالاتها، وتختلف من فصيلة حيوانية الى أخرى بحسب الذكاء الذي تتصف به؛ فالنحل والنمل – مثلاً– على قدر من الذكاء الفطري ومن ثم الاكتسابي، وربما كانت فصيلة القرود أكثر ذكاءً من غيرها، وهي أقرب الى الإنسان من سائر الحيوانات، وربما كانت فصيلة (القطط) ومنها الكلاب والذئاب والأسود والنمور أكثر ذكاءً من بعض الأناسيّ.

ونستنتج مما تقدم ذكره أن للحيوانات لغات تختلف عن لغات البشر من حيث التكوين ولكنها تتفق مع لغات البشر من

حيث الإيصال والاتصال والتعبير عن المشاعر والسلوك الغريزي والسلوك النفسي التلقائي. وهذه حقيقة أراها واضحة في ذهني، وربما يأتي اليوم الذي تصل فيه الدراسات اللغوية في مجال (اكتساب اللغة) الى الكشف عن حقائق كانت تعد من قبل أوهاماً وأباطيل.

المطارحة (٣٨): قصور العقل عن ماهية اللغة:

إن الدراسات اللغوية القديمة والحديثة المختصة بلغة معينة أو تلك التي تبحث في اللغات مقارنة بعضها ببعض أو واصفة لها أو تلك التي تؤسس علماً عاماً للغة يدعى علم اللغة العام، تلك الدراسات على اختلاف مناهجها ومدارسها لم تهتد الى حقيقة الظاهرة اللغوية كما ينبغي، حتى الدراسات الصوتية التي تعد علماً بحتاً تطبيقياً يستعين بالأجهزة والأدوات والمختبرات نجد فيها ثغرات هنا وهناك.

إن اختلاف المناهج والمشارب والأراء تجعل من حقيقة فهم الظاهرة اللغوية أمراً مستعصياً. إننا نستعمل اللغة ونتواصل بها ونعبّر بها عن مكنونات أنفسنا ولكننا نعجز عن تحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً كما نحلل العناصر الكيمياوية وتفاعلاتها في المختبر، ولذلك يمكن القول: إن عقولنا قاصرة عن فهم كُنْه اللغة لقصورها عن فهم الكثير من الأشياء في عالمنا المادي والمعنوي.

المطارحة (٣٩): ما الحضارة؟

إن للحضارة جوهراً ومظهراً، شكلاً ومضموناً، روحاً وجسداً؛ فمظهرها ما تملكه أمة من الأمم وشعب من الشعوب من العقائد والأديان والمذاهب والعادات والتقاليد والرؤى الاجتماعية وغيرها من عناصر وجوهها وأسباب بقائها منصبة كلها في (قالب) واحد يجعل تلك الأمة أو ذلك الشعب متميزاً بها ومختلفاً عن غيرها من الأمم، وترفد ذلك كله

بتصوره عموداً للخيمة العلوم والمعارف ومختلف الثقافات العلمية الصرفة والعقلية والغيبية ،على أن تقيم الأمه في بقعة جغرافية محددة الأطراف من حيث الامتداد الحضاري، مُحصّنة بالحياة المادية الصرفة من البناء والعمارة ووسائل الحياة والمعيشة للفرد والجماعات.

هذا هو مظهر الحضارة، وأما جوهرها وهو الأهم وفيه يكمن سر البقاء والديمومة فهو الاستعداد النفسي في اللا شعور والسلوك الفردي والجماعي والتعايش السلمي بين الأفراد والجماعات لتقبل مظاهر الحضارة والارتقاء بها نحو النمو والاكتمال وتوريثها للأجيال من جيل الى آخر.

الحضارة – إذن – كالنبات بذرته أصل وجوده ونموه، وأوراقه وجذوعه وسيقانه وأعضاؤه مظهر وجوده، كلما اشتد عوده صلب وامتدت جذوره في باطن الأرض.

المطارحة (٤٠): فجر الحضارة:

إن فجر الحضارات يرتبط بفجر التأريخ، وهو مرتبط بدوره باختراع الكتابة؛ فالإنسان البدائي كان يحتاج الى وسيلة للتواصل الاجتماعي وتبادل المنافع بين الأفراد والجماعات كالتجارة والبيع والشراء وتحديد الأملاك والعقارات الثابتة بتحديد حدودها... الخ فلجأ الى التدوين بوسيلة يضمن بها بقاء ذلك كله. وبناء على هذا الفرض المقبول عقلاً ومنطقاً فإن اختراع الكتابة جاء متأخراً عن بناء المدن والاستقرار في بقعة جغرافية بعد دهر من الحِلّ والترحال وسكنى الكهوف والمغارات، ويفترض أن يكون اختراع الكتابة أيضاً متأخراً عن قيام شكل من أشكال السلطة ولو كانت سلطة قبيلة على قبائل أخرى، لأن الاستقرار وقيام جذور السلطة والحكومة سبب في الكشف عن الكتابة لزيادة الحاجة إليها في أمور الحاكمين والمحكومين. هكذا يمكن تصور فجر الحضارات، أو قل: الإرهاصات الأولى لظهورها. وما قيل آنفاً يدخل كله

ضمن التكهن والافتراض غير أنه لا يخلو من حجج مقنعة نوعاً ما.

المطارحة (٤١): أدوار الحضارة:

تمر الحضارة في تأريخها الطويل بثلاثة أدوار كما يأتي:

أ. ازدهار الحضارة حين تبلغ تكاملها وأوجها وتعطي أُكُلها.

ب. انحطاط الحضارة حين تبدأ بالضعف والانكماش والانحلال تدريجياً الى أن تبلغ مرحلة الانحطاط المؤذن بغروبها ومن ثم بسقوطها.

ج. سقوط الحضارة حين يتحقق السقوط فتنهار كما ينهار الصرح الشامخ تاركة آثارها في حدودها الجغرافية وما يتجاوز هذه الحدود الى حين من الزمن يتفاوت بقدر أصالتها وشمولها وتأثيرها القوي في الحضارات الأخرى. ولدينا من شواهد التأريخ الحضاري أن بعض

الحضارات يبقي على آثاره شاخصة في حضارات أخرى كالحضارة السومرية التي بقيت مؤثرة في الحضارة الأكدية حيناً من الدهر.

المطارحة (٤٢): علاقات الحضارات:

للحضارات علاقات بعضها ببعض من حيث التأثير والتأثر أهمها ما يأتي:

أ. صراع الحضارات: هو أمر أراه لابد منه، وتشهد أمثلة كثيرة في التأريخ الحضاري صراع حضارات مع حضارات خرى سلباً وإيجاباً، وبكيفيات مختلفة وأسباب متفاوتة كالغزو العسكري والثقافي ورقي حضارة دون أخرى وفرض ثقافة على حضارة قسراً .... الخ.

ب. تكامل الحضارات: إن تشبيه الحضارة بالبناء المرتفع يعتمد كل طابق فيه على الطابق في أسفه تشبيه

مناسب، ولذلك كان تكامل الحضارات حقيقة مشهودة في سيرها عبر تأريخها؛ فالجديدة تبد من حيث انتهت القديمة وتضفي عليها بعض صفاتها، وهكذا الواحدة تلو الأخرى الى أن تتكامل بقيام حضارة لها عناصرها القويمة القديمة والمستجدة والجديدة، على أننا يجب أن نشير الى أن التكامل في هذا السياق له دلالاته الخطيرة، فلا ينبغي أن يكون تكاملاً بالمعنى المطلق، فهذا أمر مستحيل، ولكننا نعني به تكاملاً متوازناً مع العصر، لأن حركة التأريخ والتغيير تشمل التأريخ الحضاري أيضاً.

ج. تداخل الحضارات: لا نجد في مجمل تأريخ الحضارات العام حضارة لم تتداخل مع حضارة أخرى، ولكن هذا التداخل يختلف من حيث قوة الحضارة وحصانتها وأصالتها والحاجة إليها، وتتباين أيضاً من حيث التلقي؛ فبعض الحضارات يتداخل مع حضارات

أخرى من دون أن تجري تغييراً واضحاً على العناصر المستعارة في حين نجد حضارات أخرى تتسم بالقوة والأصالة تهضم ما تتلقاه من غيرها بحيث لا يبدو التداخل مشهوداً فيها. ويجب التنبيه على أن التداخل بين الحضارات تجري غالباً ما بين الحضارات من سنخ واحد، وكلما اقتربت الحضارات بعضها من بعض من حيث الزمان والمكان ازداد تداخلها.

د. تناغم الحضارات: إن تناغم الحضارات فيما بينها أشبه ما يكون بتناغم الأرواح في عالم الذرّ؛ فالمتنافر من الحضارات يبتعد بعضه عن بعض، والمتناغم يقترب بعضه من بعض.

المطارحة (٤٣): مصير الحضارات:

هل تبقى الحضارات الى ما شاء الله من الزمان الواحدة تتلو الأخرى والسائدة تأتي بعد البائدة ... وهكذا دواليك؟، وهل نصل الى أعلى سُلّم الرقي في زمن ما اصطحلوا عليه بـ

(الحداثة وما بعد الحداثة)؟ وهل تسود البشرية حضارة واحدة تجبّ غيرها؟ هذه الأسئلة وغيرها استوقفت جمعاً من الباحثين والمفكرين والفلاسفة، فأجاب كل واحد منهم أو كل فريق منهم أجوبة مختلفة أو متباينة أو متعاكسة، سلباً وإيجاباً، رفضاً وقبولاً.

وأرى أن البشرية ستنتهي في آخر المطاف الى ما بدأته، والحضارات ستندثر وتزول وتنهار بعد انهيار العالم، ونعود كما بدأنا أول مرة، أي العودة الى أوائل الإنسان القديم بعد انهيار المظاهر المادية للحضارة، أي المدنية بما فيها من وسائل العيش والبنى العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وزوال ما توصل إليه الإنسان من الكشف والاكتشاف في مجالات العلوم و(التكنولوجيا).

إن رجوع الإنسان الى ما كان عليه منذ وجوده على هذه الأرض أمر لا أتردد أبداً في قبوله والتسليم به.

فهرس المطارحات

المطارحات	الصفحة
١- وحدة الأراء والمعتقدات عند الأمم ذات الماضي الطويل	٣
٢-مفهوم العِرْق التأريخي	٦
٣-الأفكار الناقصة والخاطئة لا تبني بديلاً منها	١٠
٤-(نظرية المعرفة) بين الطرائق الرياضية والاستنتاجات والطرائق الاختبارية والتجريدية	١١
٥-وحدة الوجود (مفهوم جديد)	١٤
٦-الديمقراطية وَجْه مُقنّع للدكتاتورية	١٨
٧- كل فلسفة ينبغي أن تبنى على أسس روحانية وعقلية وعملية وواقعية مفيدة للأفراد والجماعات	٢١
٨- نشأة الوجود ومقوله (التناسق والتناغم)	٢٤
٩- دليل على وجود الله تعالى	٢٩
١٠-العدالة	٣٠
١١- ملاحظات في الفكر الحضاري	٣١
١٢- روح الحضارة والتراث الاجتماعي	٤٢
١٣-المعتقد والمعرفة وصلتهما بالحضارة	٤٤
١٤- المرئيات العقلية والمرئيات البصرية	٤٥

المطارحات	الصفحة
١٥-صراع الحضارات	٤٦
١٦-النظر الى التأريخ على أساس الحضارات لا على أساس الدول	٤٩
١٧-عودة سيادة العالم الى الشرق	٥١
١٨- قيمة العمل	٥٣
١٩- قيمة العقل	٥٥
٢٠-التبدل الحضاري	٥٨
٢١-الصلة بين الحضارات والشخصيات	٦٠
٢٢-الحقيقة والوجود	٦١
٢٣-الزمان والتحول	٦١
٢٤-العقل والقلب والإيمان	٦٣
٢٥-اللغة وما وراء اللغة	٦٤
٢٦- ما الدلالة؟	٧٠
٢٧-المعنى والسياق (أبعاد نسبية)	٧٤
٢٨-المعنى بين المتكلم والمتلقي (وضوح نسبي بشوبه الغموض)	٧٦
٢٩- ظلال المعنى أساس لمعاني أغلب المفردات المجردة	٧٨
٣٠-المعنى بين العقل الجمعي والتدوين المعجمي	٧٩

المطارحات	الصفحة
٣١- غموض المعنى الإدراكي في المعقولات	٨٠
٣٢-علم اللغة وعلم الرياضيات	٨٠
٣٣-علم اللغة وعلم الموسيقى	٨١
٣٤-كيف تكون اللغة فيما وراء الطبيعة؟	٨٢
٣٥-اللغة ونهاية البشرية	٨٣
٣٦-اللغة والتناغم الموسيقي للكون	٨٤
٣٧-لغات الحيوان	٨٥
٣٨- قصور العقل عن ماهية اللغة	٨٧
٣٩- ما الحضارة ؟	٨٨
٤٠- فجر الحضارة	٨٩
٤١- أدوار الحضارة	٩٠
٤٢- علاقات الحضارات	٩٢
٤٣- مصير الحضارات	٩٤